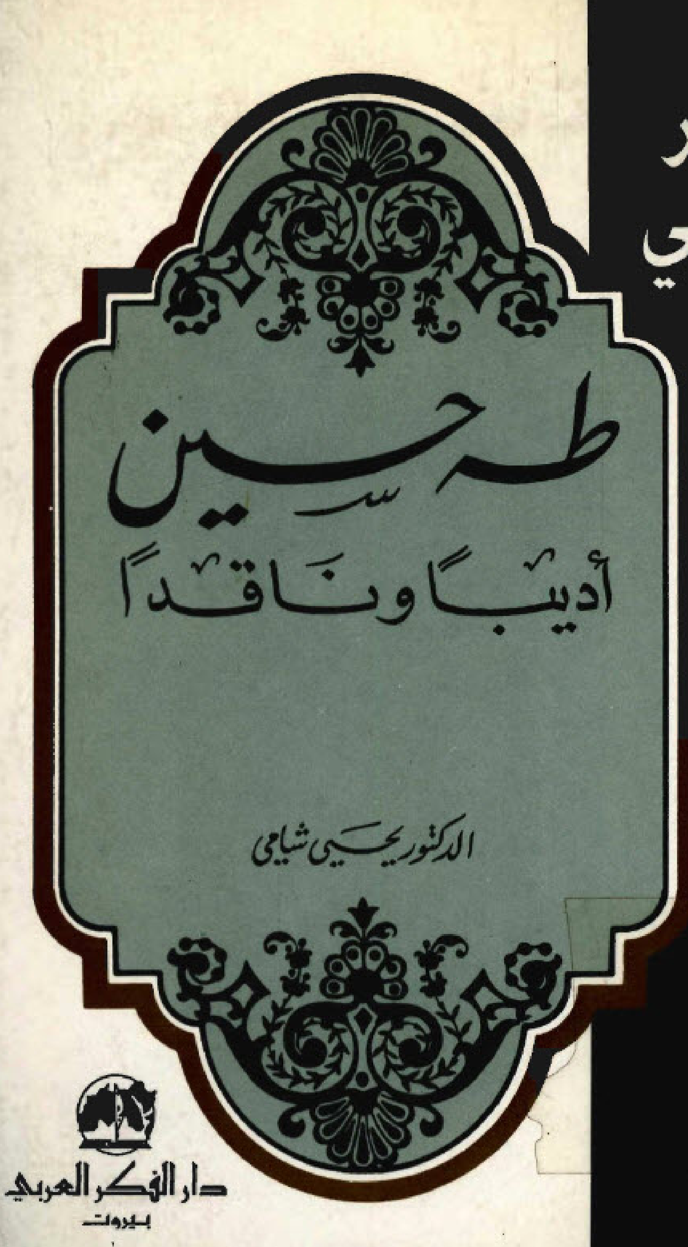
اعلام الفكر العربي

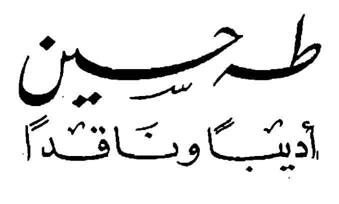


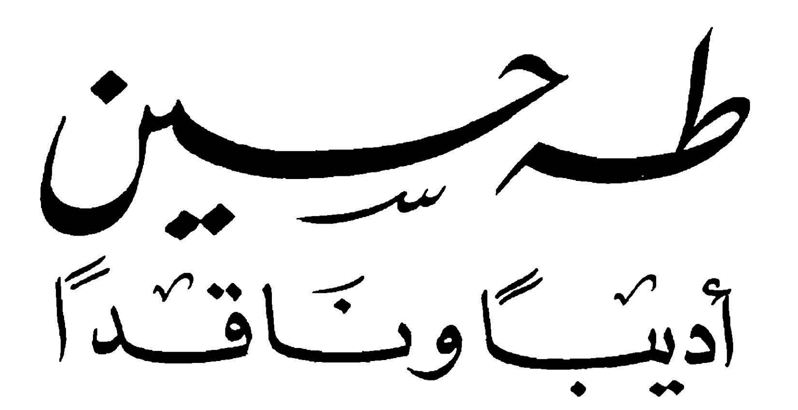
طه حسين

أديباً وناقداً

الدكتور يحيى شامي

دار الفكر العربي
بيروت


طه حسين
أديباً وناقداً



أديباً وناقداً

شرح وتحقيق

الدكتور يحيى شامي



دار الفكر العربي

بيروت



للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٥

المقــدمـة

علم من أعلام الفكر، ورائد من روّاد الإصلاح، وناقد أدبي من الطراز الأول، وأديب واسع الشهرة والثقافة، ذو أسلوب كتابي ممتع يمتاز بالسلاسة والطلاوة والجزالة والدقة والسهولة الممتنعة. . مثقف في المقام الأعلى من الثقافة العربية والإسلامية والغربية. ألمّ بالأدب، وتاريخه ونقده، وبالتاريخ الإسلامي والإنساني، وتفردَ برؤية حضارية ونقدية وتربوية وأدبية، وثقافة ممتازة تمثلت بالعديد من المقالات والمؤلفات التي تعد بالعشرات. . مالىء الدنيا وشاغل الناس في عصره، ثائر على القديم، رافض للمنهجية المتبعة ما أثار الضجة تلو الضجة في مختلف الأوساط الأدبية والفكرية والإجتماعية والدينية المحافظة: بعضهم رأى فيه المصلح الأكبر، وبعضهم نظر إليه كهادم أكبر، والحقيقة أن الرجل صاحب مشروع حضاري متقدم، وذو نزعة إصلاحية متطورة تمثلت بالثورة على الجانب السيء المظلم من القديم، وضرورة الأخذ بالجانب الحسن والمشرق من الجديد، دأبه هكذا في أدبه ونقده، وفكره واجتماعه ما حدا بالمتحجرين من أصحاب التمسك بالقديم إلى اتهامه بالكفر والزندقة، وبالتنويريين دعاة الإصلاح والتجديد، إلى وسمه بالمصلح الأكبر. . وأياً يكن، فإن هذا الأعمى الثائر، عنيت طه حسين، هذا الذي وصف نفسه في مقدمة كتابه «أديب» بأنه لا يحب السكنى في السهل المنبطح فيكون كغيره من الناس، بل في الأعالي، هناك في القمة حيث يسقط على السهل سقوط النسر، هذا الذي أطلقوا عليه على كراهية منه، لقب «عميد الأدب العربي» سيبقى والعلم عند الله، ولسنين طوال من تاريخنا المعاصر، في الأدب، وغير الأدب، في سيرة حياته، وعصاميته وفكره وثقافته الممتازة، سيبقى موضوعاً للدراسة والبحث والتحليل، وسيظل مثاراً لاختلاف الرأي، وحديث الناس، وهل اختلف الناس إلاّ في عظيم!؟

عزيزي القارىء، إليك طه حسين، أديباً وناقداً: أديباً أرّخ للأدب، فأبدع فيه تحليلاً واستقراء واستنتاجاً وكتب الأدب قصصاً وترجمة، وسيرة حياة، ونقداً

نفذ فيه إلى عمق الموضوعات الأدبية واللغوية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والدينية. . . إليكه في هذا الكتاب الذي وسمناه بـ «طه حسين، أديباً وناقداً» اعتمدنا فيه، كمصادر للدراسة، ومراجع للبحث، مؤلفات الرجل نفسه، وعدداً من الكتب التي تحدثت عنه، وتناولت أدبه، سالكين في البحث منهجاً تكاملياً وسطاً بين المنهج النفسي، والتاريخي والاجتماعي، وهو المنهج الذي كان أثيراً إلى صاحبنا، ولقد قسمناه إلى قسمين رئيسيين اثنين، أو بابين اثنين هما:

١ ـ طه حسين، أديباً.

٢ ـ طه حسين، ناقداً.

أما الباب الأول، بعد التمهيد للبحث، فهو يتضمن فصلين رئيسين اثنين هما: «طه حسين، أديباً إنشائياً» و «طه حسين، أديباً وصفياً»، وهذا الثاني بدوره قسمناه إلى قسمين اثنين، أو مبحثين هما: مبحث في التاريخ الأدبي، ومبحث في النقد الأدبي. وأما الباب الثاني فهو عبارة عن أربعة فصول أولها في السياسة، وثانيها في الأخلاق والاجتماع، وثالثها في الدين، والرابع في اللغة والأدب.

فالله نسأل التوفيق والنجاح، وما التوفيق إلا به.

د. يحيى شامي

تمهيـــد

أولاً: صورة العصر

أ ـ في السياسة:

شهد العصر الذي عاش طه حسين في كنف العديد من الأحزاب السياسية والوطنية وأبرزها حزب فيه طه حسين سلسلة من الأحداث التي كان لها أبعد الأثر في حياته وفكره وأدبه: فعلى صعيد الحكم كانت مقاليد مصر بيد الحكام من سلالة محمد علي، وهم الخديوي توفيق الذي حكم من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٩٢، السنة التي كان فيها لطه حسين ثلاث سنوات من العمر، فالخديوي عباس حلمي الثاني من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤، فالسلطان حسين كامل، أخو توفيق، من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، فالملك أحمد فؤاد، أخو كل من حسين وتوفيق، من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٣٦، فالملك فاروق بن أحمد فؤاد، من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٢، تاريخ إعلان الجمهورية وقيام ثورة ٢٣ يوليو المصرية المشهورة، تلك التي عاش في كنفها طه حسين بقية عمره حتى وفاته سنة ١٩٧٣. ولم يعرف عن طه حسين أنه مالأ أحداً من الحكام، ولا وقف موقف المعارضة الصّريحة منه. وعلى صعيد الحركات التحررية والدينية والوطنية، وقد عانت مصر في العقود الأولى من القرن العشرين من النفوذ العثماني، والاحتلال البريطاني أو حمايته، عاين طه حسين نتائج ثورة عرابي الوطنية، والتي كانت أعلنت في وجه النفوذ البريطاني سنة ١٨٨٢، ونتائج ثورة المهدي الدينية الوطنية التي أعلنت سنة ١٨٨١، ودعوة كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الإصلاحية والدينية، كما شهد هزيمة عبد الله التعايشي، خليفة المهدي، على أيدي الإنجليز بأم درمان سنة ١٨٩٩، وولادة الدستور العثماني، وثورة رجال «تركيا الفتاة» الدستورية والوطنية سنة ١٩٠٨، فالثورة المصرية سنة ١٩١٩، وولادة الدستور المصري سنة ١٩٢٣، فالمعاهدة المصرية الإنجليزية سنة ١٩٣٦. وفي سنة ١٩٥٢ أطاح محمد

نجيب قائد الضباط الأحرار حكم فاروق منهياً بذلك حكم سلالة محمد علي، ثم أعقبه جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٤ فحكم البلاد حتى سنة ١٩٧٠، تاريخ وفاته وتسلّم أنور السادات مقاليد السلطة من بعده؛ أما على الصعيد الحزبي والسياسي فقد عاش طه حسين في كنف العديد من الأحزاب السياسية والوطنية وأبرزها الوفد الذي أسسه سعد زغلول، وهو حزب وطني واسع الانتشار يقوم على أساس الدعوة إلى التحرر من النفوذين البريطاني والعثماني، والحزب الوطني، بزعامة مصطفى كامل الذي أسسه سنة ١٩٠٧، وهو حزب يدعو إلى الأخذ بأسباب النهضة، والاستقلال، لكنه كان يمالىء سياسة العثمانيين، وقد أيده في حقبة من حياته طه حسين، وحزب الأمة، ومن أبرز زعمائه أحمد لطفي السيد، الأديب والصحفي والوزير، وكان مناوئاً للعثمانيين؛ وحزب الإصلاح الدستوري، وحزب الإتحاد الذي أوعز القصر بإنشائه سنة ١٩٢٥، وحزب الأحرار الدستوريين، وهو حزب يمالىء السلطة مثلما يمالىء الإنجليز، وقد شارك طه حسين في أنشطة أعضائه الصحفية والسياسية، وكتب في صحيفته «السياسة» وكان يرأسها محمد حسين هيكل.

ب ـ في الأدب والثقافة:

تعتبر الحقبة التي عاش فيها طه حسين، وهي تمتد من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٩٧٣، من أغنى الحقب المصرية في تطور اللغة والأدب والشعر والفكر والنقد، والعلوم، والتمثيل والمسرح والصحافة، وهي حقبة توّج بها عصر النهضة ولمع فيها العمالقة من كبار الأدباء والشعراء والنقاد والقصّاص والروائيين والمسرحيين، وإن من أبعدهم صيتاً كلاً من عبد الرحمٰن الكواكبي، صاحب «طبائع الاستبداد» (ت ١٩٠٥)، وقاسم أمين، صاحب «تحرير المرأة» (ت ١٩٠٨)، وجرجي زيدان، صاحب «تاريخ الآداب العربية» (ت ١٩١٨)، وولي الدين يكن، صاحب «الصحائف السود» (ت ١٩٢١)، والمنفلوطي، صاحب «النظرات» و «العبرات» (ت ١٩٢٤)، ويعقوب صروف، صاحب المباحث العلمية والأدبية (ت ١٩٢٧)، ومصطفى صادق الرافعي، صاحب «تاريخ الأدب العربي» (ت ١٩٣٧)، ومي زيادة، صاحبة «كلمات وإشارات» (ت ١٩٤١)، والمازني، القصاص (ت ١٩٤٩)، وزكي مبارك، صاحب «النثر الفني» (ت ١٩٥٢)، وأحمد أمين، صاحب الإسلاميات (ت ١٩٥٤)، ومحمد حسين هيكل، صاحب «حياة محمد» (ت ١٩٥٦) ومحمد مندور، الناقد الأدبي (ت ١٩٦٥)، وأحمد حسن الزيات،

صاحب «الرسالة» (ت ١٩٦٨)، ومحمود تيمور، القصاص والروائي (ت ١٩٧٣)، ومثله إسماعيل صدقي (ت ١٩٧٣) ويوسف السباعي (ت ١٩٧٨)، وتوفيق الحكيم (ت ١٩٨٧) وعباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤) ونجيب محفوظ، الروائي (ولد ١٩١٢)..

أما في الشعر فإن طه حسين عاصر عدداً من أبرز أعلامه وعمالقته نذكر منهم كلاً من رائد النهضة الشعرية محمود سامي البارودي (ت ١٩٠٤)، وأحمد شوقي (ت ١٩٣٢) وحافظ إبراهيم (ت ١٩٣٢) وإسماعيل صبري (ت ١٩٢٣) وعلي محمود طه (ت ١٩٢٩)، وزكي مبارك (ت ١٩٥٢)، وإبراهيم ناجي (ت ١٩٥٣) وأحمد زكي أبو شادي (ت ١٩٥٥) وعبد الرحمن شكري (ت ١٩٥٨)، وغيرهم كثير..

وأما في الصحافة فهي من الشهرة والتقدم والرقي والاهتمام بالشؤون السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية والأدبية، في مقام رفيع، نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر كلاً من «المقتطف»، ومؤسسها يعقوب صروف وفارس نمر و «الأهرام» لمؤسسيها سليم وبشارة تقلا، و «المؤيد» لعلي يوسف، و «الهلال» لجرجي زيدان، و «الضياء» و «المنار» لمحمد رشيد رضا، و «المجلة المصرية» و «اللواء» لمصطفى كامل، و «المصوّر» و «الجريدة» لأحمد لطفي السيد، و «الظاهر» لأبي شادي، و «البلاغ» و «الرشيد» و «الأفكار» و «كوكب الشرق» و «الأخبار»، و «روز اليوسف» و «مصر الفتاة» و «الجهاد» و «المشكاة»، و «الرسالة» للزيات، و «المؤيد الجديد» و «الأساس» و «المقطم» و «الأزهر» و «منبر الإسلام» وغير ذلك كثير، وقد شارك طه حسين في العديد من هذه الصحف والمجلات بمقالاته الأدبية والنقدية الممتعة، والاجتماعية، والسياسية والثقافية.

ثانياً: سيرة حياته

أ ـ مولده:

في الرابع عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٨٨٩ ولد طه، سابع أولاد أبيه حسين الثلاثة عشر ولداً، في قرية الكيلو قريباً من مغاغة إحدى مدن محافظة المينا في الصعيد الأوسط المصري. وما مرّ على عيني الطفل أربعة من الأعوام حتى أصيبتا بالرمد ما أطفأ النور فيهما إلى الأبد، لكن عوضّه الله بصيرة نافذة، وذهناً صافياً، وفؤاداً ذكياً، وعقلاً متفتحاً صغر بإزائه فقد البصر، والحرمان بنعمة التلذذ بجمال ما في الوجود.

ب ـ في الكتّاب:

أدخله أبوه كتّاب القرية للشيخ محمد جاد الرب، لتعلم العربية والحساب وتلاوة القرآن الكريم وحفظه، فحفظه في مدة قصيرة أذهلت أستاذه وأترابه ووالده الذي كان يصحبه معه أحياناً لحضور حلقات الذكر، والاستماع عشاءً إلى سيرة عنترة، وأبي زيد الهلالي(١).

ج ـ في الأزهر

سنة ١٩٠٢ دخل طه الأزهر للدراسة الدينية، والاستزادة من علوم العربية، فحصل فيه ما تيسر من الثقافة، ونال شهادته. التي تخوله التخصص في الجامعة، لكنه ضاق ذرعاً فيه، فكانت الأعوام الأربعة التي قضاها فيه، وهذا ما ذكره هو نفسه، وكأنها أربعون عاماً وذلك بالنظر إلى رتابة الدراسة، وعقم المنهج، وعدم تطور الأساتذة والمشايخ وطرق وأساليب التدريس(٢).

د ـ في الجامعة المصرية

ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها سنة ١٩٠٨ كان طه حسين أول المنتسبين إليها، فدرس العلوم العصرية، والحضارة الإسلامية، والتاريخ والحغرافيا، وعدداً من اللغات الشرقية كالحبشية والعبرية والسريانية، وإن ظل يتردد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغوية والدينية والإسلامية. دأب على هذا العمل حتى سنة ١٩١٤، وهي السنة التي نال فيها شهادة الدكتوراة وموضوع الأطروحة هو: «ذكرى أبي العلاء» ما أثار ضجة في الأوساط الدينية المتزمتة، وفي ندوة البرلمان المصري إذ اتهمه أحد أعضاء البرلمان بالمروق والزندقة والخروج على مبادىء الدين الحنيف(٣).

هـ ـ في فرنسا

وفي العام نفسه، أي في عام ١٩١٤ أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبيليه بفرنسا، لمتابعة التخصص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم العصرية، فدرس في جامعتها الفرنسية وآدابها، وعلم النفس، والتاريخ الحديث. بقي هناك حتى سنة ١٩١٥، سنة عودته إلى مصر، فأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها

---

(١) حسين، طه: الأيام ٦٨/١. دار المعارف بمصر ١٩٧٤.

(٢) مذكرات طٰه حسين ص ٩. ط بيروت ١٩٦٧.

(٣) مذكرات طٰه حسين ص ٧٩.

معارك وخصومات متعددة، محورها الفارق الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية ما حدا بالمسؤولين إلى اتخاذ قرار بحرمانه من المنحة المعطاة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج، لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار المتعسف فعاد إلى فرنسا من جديد، لمتابعة التحصيل العلمي، ولكن في العاصمة باريس، فدرس في جامعتها مختلف الاتجاهات العلمية في علم الاجتماع، والتاريخ اليوناني، والروماني، والتاريخ الحديث، وأعد خلالها أطروحة الدكتوراة الثانية، وعنوانها: «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون»[١].
كان ذلك سنة ١٩١٨، إضافة إلى إنجازه دبلوم الدراسات العليا في القانون الروماني، والنجاح فيه بدرجة الإمتياز؛ وفي غضون تلك الأعوام كان تزوج من سوزان بريسو، الفرنسية السويسرية التي ساعدته على الاضطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية، فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد[٢].

و ـ في الجامعة المصرية

ولما عاد إلى مصر سنة ١٩١٩ عيّن طه حسين أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني، في الجامعة المصرية، وكانت جامعة أهلية، فلما ألحقت بالدولة سنة ١٩٢٥ عينته وزارة المعارف أستاذاً فيها للأدب العربي، فعميداً لكلية الآداب في الجامعة نفسها، وذلك سنة ١٩٢٨، لكنه لم يلبث في العمادة سوى يوم واحد إذ قدم استقالته من هذا المنصب تحت تأثير الضغط المعنوي والأدبي الذي مارسه عليه الوفديون خصوم الأحرار الدستوريين الذين كان طه حسين واحداً منهم[٣].

وفي سنة ١٩٣٠ أعيد طه حسين إلى عمادة الآداب، لكن، وبسبب منح الجامعة الدكتوراة الفخرية لعدد من الشخصيات السياسية المرموقة مثل عبد العزيز فهمي، وتوفيق رفعت، وعلي ماهر، ورفض طه حسين لهذا العمل، أصدر وزير المعارف مرسوماً يقضي بنقله إلى وزارة المعارف، لكن رفض العميد تسلم منصبه الجديد اضطر الحكومة المصرية إلى إحالته إلى التقاعد سنة ١٩٣٢[٤].

ز ـ في الصحافة

على أثر إحالة طه حسين إلى التقاعد انصرف إلى العمل الصحفي فأشرف

---

(١) نفسه ص ١٦٥.
(٢) شرف، عبد الرزاق: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص ٣٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.
(٣) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص ٥٦.
(٤) نفسه ص ٥٧.

على تحرير «كوكب الشرق» التي كان يصدرها حافظ عوض، وما لبث أن استقال من عمله بسبب خلاف بينه وبين صاحب الصحيفة، فاشترى امتياز «جريدة الوادي» وراح يشرف على تحريرها، لكن هذا العمل لم يعجبه فترك العمل الصحفي إلى حين، كان هذا عام ١٩٣٤[١].

ح ـ في الجامعة مجدداً

وفي العام نفسه أي عام ١٩٣٤ أعيد طه حسين إلى الجامعة المصرية بصفة أستاذ للأدب، ثم بصفة عميد لكلية الآداب ابتداء من سنة ١٩٣٦. لكن في سنة ١٩٣٩، وبسبب خلافه مع حكومة محمد محمود، استقال من العمادة لينصرف إلى التدريس في الكلية نفسها حتى سنة ١٩٤٢، سنة تعيينه مديراً لجامعة الإسكندرية، إضافة إلى عمله الآخر كمستشار فني لوزارة المعارف، ومراقب للثقافة في الوزارة عينها، وفي عام ١٩٤٤، ترك الجامعة بعد أن أحيل إلى التقاعد[٢].

ط ـ وزيراً للمعارف

وفي سنة ١٩٥٠، وكان الحكم بيد حزب الوفد، صدر مرسوم تعيينه وزيراً للمعارف، وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٢، تاريخ إقالة الحكومة الوفدية، بعد أن منح لقب الباشوية سنة ١٩٥١، وبعد أن وجه كل عنايته لجامعة الإسكندرية، وعمل رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضواً في العديد من المجامع الدولية، وعضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب[٣].

ي ـ عودة إلى الجامعة والصحافة

وفي سنة ١٩٥٩ عاد طه حسين إلى الجامعة بصفة أستاذ غير متفرغ، كما عاد إلى الصحافة فتسلم رئاسة تحرير «الجمهورية» إلى حين[٤].

ك ـ مناصب وجوائز

اضطلع طه حسين خلال تلك الحقبة، وفي السنوات التي أعقبتها بمسؤوليات مختلفة، وحاز مناصب وجوائز شتى، منها تمثيله مصر في مؤتمر

---

(١) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٥٩.
(٢) نفسه ص ٥٩.
(٣) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٦٠.
(٤) نفسه ص ٦١.

الحضارة المسيحية الإسلامية في مدينة فلورنسا بإيطاليا، سنة ١٩٦٠، وانتخابه عضواً في المجلس الهندي المصري الثقافي، والإشراف على معهد الدراسات العربية العليا، واختياره عضواً محكماً في الهيئة الأدبية الطليانية والسويسرية، وهي هيئة عالمية على غرار الهيئة السويدية التي تمنح جائزة نوبل، واسم الجائزة التي تمنحها تلك الهيئة أو المؤسسة، هي جائزة بوزان. ولقد رشحته الحكومة المصرية لنيل جائزة نوبل، وفي سنة ١٩٦٤ منحته جامعة الجزائر الدكتوراة الفخرية، ومثلها فعلت جامعة بالرمو بصقلية الإيطالية، سنة ١٩٦٥. وفي السنة نفسها ظفر طه حسين بقلادة النيل، ثم في سنة ١٩٦٧ تسلم رئاسة مجلس إدارة جمعية الأدباء، إضافة إلى رئاسة مجمع اللغة العربية؛ وفي عام ١٩٦٨ منحته جامعة مدريد شهادة الدكتوراة الفخرية، وفي سنة ١٩٧١ رأس مجلس إتحاد المجامع اللغوية في العالم العربي، ورشح من جديد لنيل جائزة نوبل، وأقامت له منظمة الأونسكو الدولية في أورغواي حفلاً تكريمياً أدبياً قل نظيره[1].

ل ـ وفاته

وفي الثامن والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٧٣، وضع الموت حداً ونهاية لهذا الأديب العبقري، والناقد اللوذعي، فانتهت بموته حقبة من أغنى الحقب الأدبية والعلمية في تاريخ مصر وتاريخ العالم العربي.

م ـ أساتذته

أول أستاذ لطه حسين، كان الشيخ محمد جاد الرب، الذي علمه مبادىء القراءة والكتابة والحساب، وتلاوة القرآن الكريم في الكتاب الذي كان يديره بمغاغة في عزبة الكيلو.

وفي الأزهر تلقى العلم على عدد من الأساتذة والمشايخ أبرزهم الشيخ المرصفي، والشيخ مصطفى المراغي، والشيخ محمد بخيت، والشيخ عطا، والشيخ محمد عبده، وقد أعجب بادىء الأمر كثيراً بآراء هذا الأخير واتخذه مثالاً في الثورة على القديم والتحرر من التقاليد.

وفي الجامعة المصرية تتلمذ على يد كل من أحمد زكي في دروس الحضارة الإسلامية، أحمد كمال باشا، في الحضارة المصرية القديمة،

---

(١) طه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٦٢.

والمستشرق جويدي، في التاريخ والجغرافيا[١]. أما في الفلك فتتلمذ على كرنك نللّينو، وفي اللغات السامية القديمة على المستشرق ليتمان، وفي الفلسفة الإسلامية على سانتلانّا، وفي تاريخ الحضارة المشرقية القديمة على ميلوني، والفلسفة على ماسينيون، والأدب الفرنسي على كليمانت[٢].

أما في جامعة باريس فدرس التاريخ اليوناني على غلوتس، والتاريخ الروماني على بلوك، والتاريخ الحديث على سيغنوبوس، وعلم الاجتماع على أميل دوركهايم، وقد أشرف هذا ومعه بوغليه على أطروحته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، بمشاركة كل من بلوك وكازانوفا[٣].

ن ـ ثقافته

حصل طه حسين ثقافة واسعة متعددة المناحي والأطراف، ويمكن حصرها إجمالاً بالعلوم الأدبية من لغة ونحو وصرف وبيان وبلاغة، وبالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول، وبتاريخ الأدب ونقده، وبالتاريخ العربي والإسلامي واليوناني والروماني، وبالدراسات الفلسفية والاجتماعية، وبالاطلاع، بل التمكن من الأخذ بمناهج الدارسة والبحث الحديثة التي حمل لواءها عدد من كبار المستشرقين[٤].

ولاغرو القول إن طه حسين كان مثالاً لاستيعاب الثقافة بكل أبعادها في عصره، ونموذجاً للمثقف الذي حمل لواء الإصلاح والتجديد في شتى الميادين الاجتماعية والسياسية والأدبية والدينية. ففي السياسة، مثلاً، عمل في صفوف الأحرار الدستوريين دفاعاً عن القضايا الوطنية والاجتماعية والفكرية، ثم عمل في صفوف حزب الوفد، وهو حزب أكثر جماهيرية، وأبعد عن الاستقراطية، لكن الذي غلب على ثقافة طه حسين هو التأثر بالحضارة الأوروبية، والإفتتان بأساليبها العلمانية، ومواقفها العقلانية، وبجذورها الفكرية المتمثلة بالفكر اللاتيني الروماني ومن قبله الفكر اليوناني، ومن هنا كان تأكيد طه حسين على ضرورة صهر الحضارة المصرية بالحضارة الأوروبية، والأخذ بأسبابها منطلقاً من الفهم القائل

---

(١) مذكرات طه حسين ص ١١.

(٢) طٰه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٢٧.

(٣) نفسه ص ٣٠.

(٤) طٰه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٣٨.

إن حضارات المتوسط جميعاً، ذات أصل حضاري واحد مشترك. ومن هنا أيضاً كانت دعوة طه حسين إلى العمل على دمج الثقافة المصرية، بالثقافة العربية، وبالثالثة الغربية، وإن كان في دخيلة نفسه، أقرب إلى الثالثة، وبخاصة إلى الثقافة الفرنسية التي فتن بها أشد الافتتان. فحاول جاهداً أن يطبق العديد من مناهجها وأساليبها على ثقافة المصريين وتفكيرهم.

س ـ مؤلفاته

أربت أبحاث طه حسين ومقالاته الأدبية والنقدية والاجتماعية على المئات، وبعد أن جمع العديد منها في كتب مستقلة، فإن مؤلفاته لتعد بالعشرات، وإن من أبرزها، «ذكرى أبي العلاء» و «حديث الأربعاء» و «في الأدب الجاهلي» و «من حديث الشعر والنثر» و «الأيام» و «دعاء الكروان» و «مع المتنبي» و «المعذبون في الأرض» و «بين بين» و «من لغو الصيف» و «رحلة الربيع» و «فصول في الأدب والنقد» و «شجرة البؤس» و «أحاديث»، في مختلف فنون الأدب وتاريخه ونقده وإن منها أيضاً: «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون» و «الظاهرة الدينية عند اليونان» و «قادة الفكر» و «مرآة الإسلام» و «الفتنة الكبرى» و «على هامش السيرة» و «الشيخان أبو بكر وعمر»، وغير ذلك من الكتب في التاريخ والفلسفة، والسياسة والاجتماع. هذا فضلاً عن عدد كبير من الكتب المترجمة عن الفرنسية خاصة، كـ «أندروماك» لراسين، و «أوديب ملكاً» و «أنتيغون». لسوفوكلس، وغير ذلك من الكتب والمقالات والأبحاث.

الباب الأول

طـه حسيـن، أديباً

ويتضمن فصلين اثنين رئيسيين هما :

- الفصل الأول: طه حسين، أديباً إنشائياً
- الفصل الثاني: طه حسين، أديباً وصفياً

مدخل

من الثوابت، عدم ثبات الرأي في تعريف الأدب، وكيف يثبت الرأي في ما لا يحدّ بحدٍّ، أو يقيّد بقيد؟ أنقول إن الأدب صياغة فنية لتجربة شخصية أو اجتماعية أو إنسانية؟ أم نقول إنه فن التعبير عن الذات والوجود والحياة باللغة الجميلة؟ أو نقول هو الإجادة في النظم أو النثر؟ أو هو فن التعبير الجميل، فحسب؟ . .

ومن الثوابت أيضاً، عدم ثبات الرأي في تعريف النقد، وكيف يثبت الرأي في ما تعددت فيه المذاهب، وتباينت فيه الأذواق، واختلفت حوله المناهج المعتمدة، فمن قائل هو المنهج التاريخي، إلى قائل هو المنهج الاجتماعي، إلى ثالث يقول إنه المنهج النفسي. . . الخ. .

وأياً يكن الأمر، فإن من البدهيات المعروفة والمتواطأ عليها أن يقال إن ثمة أدباً هو الشعر، وأدباً آخر هو النثر، هذا لجهة الشكل؛ وأن ثمة أدباً دافعه ذاتي، وآخر دافعه موضوعي، وهذا لجهة السبب الدافع. . وأن ثمة فنوناً وأشكالاً أدبية متداولة هي فن القصة، أو المسرحية، أو الملحمة أو المقالة، وأن ثمة أغراضاً في الشعر خاصةً، هي المدح، أو الهجاء، أو الرثاء، أو الفخر، والغزل، والوصف، والوطنيات. . الخ، وهذا باعتبار التأليف. وإن شئت فقل إن الأدب بنوعيه الشعر والنثر، وباعتبار موضوعه، هو على ضربين اثنين هما: الأدب الإنشائي، والأدب الوصفي، وأن الإنشائي موضوعه إنما يكون مستوحى من الذات أو الطبيعة. يبدعه الأديب إبداعاً، وينشئه إنشاء، وأن الوصفي إنما يتخذ من الإنشائي موضوعاً له، فيعنى بدارسته ويقوم بتحليله ونقده، وتبيان خصائصه، ومواطن إبداعه، وهو أي الوصفي، بدوره على ضربين اثنين هما: تاريخ الأدب، والنقد الأدبي.

والمهم أن السؤال المطروح هو: أين هو طه حسين من هذا كله، أديباً؟

وأين هو ناقداً؟ وهل قامت شهرة هذا الرجل إلا على هٰذين الركنين الأساسيين، عنيت الأدب والنقد؟ هذا ما سنعرض له في هذا الباب المستقل الذي أسميناه: طه حسين، أديباً، وفي الباب الثاني المسمى بـ: طه حسين، ناقداً.

وفيما يخص الباب الأول، فإنه لمن نافل القول أن نشير إلى أن طه حسين توفر على الأدب بنوعيه، الإنشائي والوصفي، وكان إلى الثاني، أي إلى تاريخ الأدب ونقده، أميل، وبه أشد عناية، وفيه أوفر حظاً، حتى أن شهرته الأدبية لتقوم عليه أساساً، ولا يعني هذا أبداً إغضاء من أدبه الإنشائي المتمثل بعدة أنواع أو أشكال أهمها المقالة، والقصة، وأدب السيرة، وأدب الرحلة، لكن، ولأن هذا الأخير هو موضوع بحث الأدب الوصفي ومادته، فإنا نبدأ الحديث به أولاً، في فصل أول، ثم نتحدث عن الأدب الوصفي، في فصل آخر، ثانياً.

طه حسين أديباً إنشائياً

أولاً: أدب المقالة:

أدب المقالة فرع من فروع الأدب، ونوع من أهم أنواع النثر الأدبي، عرفته العرب قديماً، وبخاصة في العصر العباسي باسم «الفصول» أو «الأمالي»، لكن في عصر النهضة، ونتيجة لاتصال بعض العرب بالأوروبيين، واطلاعهم على معارف الغرب وآدابهم في شتى أنواعها وفنونها، ونظراً إلى ارتقاء الصحافة العربية المصرية، واهتمامها بهذا النوع من الأدب، وتخصيصها له حيزاً مرموقاً من صفحاتها، فإن أدب المقالة ازدهر في هذا العصر إيما ازدهار، وبرع فيه العديد من الأدباء والكتاب على اختلاف نزعاتهم وميولهم.

والمقالة، في الأصل نوع من البحث تنتظمه بضع صفحات، تكثر أو تقلّ، من صفحات المجلة أو الجريدة، يتناول فيه صاحبه مسألة من المسائل، أو موضوعاً من الموضوعات المحددة فيلمّ بجوانبه، شارحاً معناه وخصائصه، وأسبابه ونتائجه. محيطاً بجميع ما يتصل به، فإن كان موضوع المقالة أدباً، عرض له الكاتب من وجهة نظر ذاتية، وإن كان موضوعها علمياً عرض له من وجهة نظر موضوعية، وقد يجمع بين وجهتي النظر الذاتية والموضوعية، ولا بد في المقالة، وأياً تكن علمية أو فنية، أو تاريخية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو أدبية، من توافر شروط أهمها ثلاثة هي الفكرة، أو التجربة، والمنهج، والأسلوب الذي هو الشكل، أي اللفظ والتعبير. وبخصوص الشرط الثاني، أي المنهج، وهو من أهم شروط المقالة، فيجب أن يتضمن عناصر ثلاثة هي التمهيد للموضوع، أي التنبيه على الفكرة الرئيسية، فالعرض، أي مجموعة الأفكار الثانوية وحسن الربط بينها، ومعرفة الانتقال بين أجزائها بالشرح والتعليل، فالخاتمة، وهي عبارة عن خلاصة ما توصل إليه الكاتب من نتائج تتعلق بالشأن المطروح.

وفي ما يخص أديبنا طٰه حسين، فإنه يعد في طليعة الأدباء المعاصرين الذين عالجوا مثل هذا الفن الأدبي، وأولوه اهتماماً خاصاً، بنوعيه: الذاتي

والموضوعي، وإن كان توفره على النوع الأول، أي الذاتي والأدبي، أشمل وأعم وأكثر، حتى أن أدبه في معظمه، إن هو إلاّ هذه المقالات التي كان دأب على نشرها، قبل أن يضمها كتاب واحد، في العديد من الصحف والمجلات التي حفل بها عصره ومن أبرزها «الجمهورية» و «الثقافة» و «الهلال» و «المقتطف» و «السياسة»، و «الرسالة» و «الجهاد» و «الكاتب المصري».

ولأن الموضوعات التي تضمنتها مقالات طه حسين ستكون محور الدراسة لدى الحديث عن أدبه الوصفي بنوعيه التاريخي والنقدي، كما سيتضح في هذا الباب، وفي الباب الذي يليه لدى الحديث عنه ناقداً في السياسة والاجتماع والأخلاق والدين الأدب، فإنه ليكفينا، في هذا المقام، الإشارة إلى بعض مقالاته التي تمكن من الإطلاع على مضامينها وخصائصها. وعلى الطريقة أو المنهج الذي اعتمده في مثل هذا النوع من الأبحاث ذات الموضوعات المتباينة والألوان المختلفة، وإن منها ما هو ذو طابع تاريخي أدبي، واجتماعي سياسي، وأدبي بحت.

أ ـ المقالة التاريخية الأدبية:

توفر طه حسين على كتابة التاريخ الإسلامي، خاصة، كتابة أدبية ممتعة فيها الموضوعية والذاتية، وطرافة الأسلوب الذي غلب عليه جمال التعبير، ودقة التصوير، وعمق التفكير، دون الإغضاء عن الاهتمام بالوقائع التاريخية التي وقف عندها موقف المؤرخ العالم الحذر، متجنباً ما كان مضطرب الرواية والنقل، أو ما كان مخالفاً لروح العلم وللعقل، وإن كتابه الموسوم بـ «على هامش السيرة»، وفي الجزء الثاني منه خاصةً، ويحمل اسم «الفتنة الكبرى» أو «علي وبنوه»، وهو عبارة عن مجموعة مقالات كان نشرها في «السياسة» ما بين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٤٣، إن هذا الكتاب القيم ليعد من أشهر الكتب التاريخية الأدبية حتى أنك لتحار وأنت آخذ في قراءته، أتقرأ فيه أدب طه حسين، أم تاريخه. وأياً يكن ما تضمنه من فصول، وبخاصة في الجزء الثاني منه، ونعني بالفصول، المقالات، لتعتبر مثالاً يحتذى في أدب المقالة إن من حيث أهمية الموضوع، ووضوح الفكرة، وإن من حيث رصانة البحث، والقدرة على التحليل والتعليل والاستنتاج، والانتقال من المقدمة، إلى العرض، فالخاتمة.

لقد تناول طه حسين أحداث تلك الحقبة التاريخية ورتبها فصولاً فصولاً، أي مقالات مقالات، فجاءت في غاية الروعة والكمال، وبإمكان القارىء الرجوع

إليها في مظانها، لكن نذكر بموضوعاتها المتعلقة بحال المسلمين إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وما اعترى وضعهم من عوامل ضعف وتشكيك وتناحر، وتطاحن، وتطاول على هذا المقام الأسمى، عنيت مقام خلافة المسلمين، وتترى المقالات في هذا الكتاب، وهي تتحدث عن قتلة عثمان، وموقف جيوش المسلمين، والمهاجرين والأنصار، وطلحة والزبير، وتولّي الغافقي أمور المدينة، ومبايعة علي، وقتلة عثمان، ونفوذ الثائرين في المدينة، وموقف العمال في الأمصار من علي، وموقف معاوية من علي، وشيء من منزلة علي، ورأي ابن عباس وأبي سفيان، وعدد من بني هاشم في الخلافة، والذين خالفوا علياً، أو ناصروه، والمؤامرة التي دبرها معاوية للكيد من الإسلام، وتأليبه الناس على عليّ بحجة الأخذ بثأر عثمان، وخروج عائشة أم المؤمنين إلى قتال علي، ثم خروج معاوية من بعد، وحرب الجمل، وحرب صفين، وما جرى فيها من قتال، ومراسلات، ووفود، وتحكيم، ورفع المصاحف، وخروج الخوارج؛ وبخصوص ظهور ما يعرف بالسبئية، من وحي أجواء صفين فإن طه حسين ينفي مثل هذه الظاهرة ويقول إنها منحولة شأن الكثير من المسائل والقضايا المنحولة على تاريخ الإسلام والمسلمين. . ويتحدث في مقالات لاحقة، عن مقتل علي وتآمر الخوارج على المسلمين، كما يتحدث عن صلح الحسن ومعاوية، واستتباب الأمر لهذا الأخير، ثم عن زياد بن أبيه واستلحاق معاوية زياداً بأبيه، وعن الحسن، والحسين، ووقعة الطف بكربلاء، وتآمر يزيد على الإسلام، بقتله الحسين. . إلى ما هنالك من أمور وشجون عرضها في تلك الفصول أو المقالات الممتعة والمفيدة معاً؟[1].

ب ـ المقالة الاجتماعية السياسية:

المقالة الاجتماعية، وهي فرع من الأدب الاجتماعي، هي تلك التي يتناول فيها صاحبها مشكلة أو موضوعاً، أو ظاهرة أو جانباً من جوانب المجتمع. بالعرض والتحليل، أو النقد والتوجيه. وقد ساعدت الصحافة، والأندية، والجمعيات على انتشار هذا النوع من الأدب، وكان للواقع الاجتماعي الحافل بمعطيات البؤس أو الفقر، أو الشقاء، أو الغلاء، أو الاستغلال، تأثير بالغ في ظهور هذا النوع الأدبي، فانبرى جماعة من الكتاب والأدباء، يصفون مثل هذه

(١) انظر المزيد عن هذا كله في: الفتنة الكبرى، الجزء الثاني. ط دار المعارف بمصر ١٩٧٨.

الظواهر، فاكتفى بعضهم برسم الواقع وتصويره، أو نقده، دون أن يعطوا حلاً يذكر لتفاقم هذه الظاهرة أو المشكلة الاجتماعية، وراح بعضهم الآخر يعملون ما عمل الفريق الأول، لكنهم لم يكتفوا بتصوير الواقع، وعرضه، ونقده، بل قدموا الحل الملائم، ووضعوا أيديهم على الداء واصفين الدواء، ومن هؤلاء طه حسين، الذي تأثر بمن تقدمه في هذا الميدان أمثال قاسم أمين، وولي الدين يكن، وغيرهما من رواد النهضة الأدبية. ونحن هنا، في هذا المقام، لا يسعنا إلاّ أن نشيد بدور طه حسين في هذا الميدان الاجتماعي إذ خصّص العديد من مقالاته لمعالجة الموضوعات الاجتماعية، وإن منها على سبيل المثال ضآلة راتب الموظف المصري، والحال التي هو عليها، وانعكاس هذا كله عليه شخصياً، وعلى أفراد أسرته، وعلى الأخلاق، والمجتمع والدولة والأمة..

تحت عنوان (خطر)، وهو فصل، أو قل هو مقالة، تضمنتها فصول كتابه الموسوم «بالمعذبون في الأرض» مهد طه حسين لموضوعه الأساس بالإعراب عن بغضه الشديد لإلقاء الدروس في الوعظ والإرشاد، وتنبيه الغافلين، وتحذير الذين لا يغني فيهم التحذير، ولكنه الواجب، والحرص على الوطن والأمة، يدفعانه إلى الخوض في موضوع كان لا بد من الخوض فيه، وهو ضآلة مرتب الموظف المصري، من الدرجة السابعة، والذي يبلغ اثني عشر جنيهاً أو أقل من ذلك في الشهر؛ كيف هذا والموظف متزوج، وله خمسة من الأولاد، ويعول بني أخته، وهم ستة، وعمة له تقطعت بها الأسباب، أسباب الرزق، فهم إذن أربعة عشر شخصاً بالتمام والكمال[1].

وليس المهم هو حالة هذا الموظف بالذات، بل المهم هو حالة كل موظف مصري في مثل هذه الدرجة من الراتب، فأنى له العيش الكريم من الطعام أو الشراب أو اللباس، أو المسكن؟ وهل أمام مثل هذا الموظف وأضرابه إلا الاقتراض، فالعجز عن أداء الدين، فامتناع المقرضين ما داموا لا يستردون ما يقرضون، ثم يكون الحرمان مما يقيم الأود، ويرد الجوع، ويقي من حر الصيف وبرد الشتاء؟ حتى الالتجاء إلى الأغنياء دونه ما دونه من الأهوال، وذلك إما لأن قلوب الأغنياء قاسية، يقول طه حسين، وإما لأن هؤلاء الموظفين ليسوا وحدهم طلاب العون، وإما لأن الأغنياء يرون أن من الحق عليهم أن يحسنوا ولكنهم

---

(١) المعذبون في الأرض، ص ١٤٨. ط ١١. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨.

يرون أن من الحق أن ينظم الإحسان حتى لا ينتشر الأمر، وحتى لا يتخذ التسول صناعة، وحتى لا يتخذ البر وسيلة إلى طمع الناس فيما ليس في أيديهم من يسر الموسرين[1]. والمهم الذي لا شك فيه يقول طه حسين، أن هذا الموظف كأضرابه من ذوي الدخل المحدود، عاجز عن أن يجد في مرتبه الضئيل ما يرضي أيسر ما تحتاج إليه أسرته لتعيش، فهو يستدين حتى لا يجد إلى الاستدانة سبيلاً، وهو يلتمس الإحسان فلا يظفر بما يلتمس من الإحسان، فليس أمامه إذن، إلا أن يقترف الإثم ليعيش، لكن القانون له بالمرصاد؛ إذن، عليه بالصبر ولكن الصبر لا يطعم الجائع، ولا يكسو العاري، ولا يداوي المريض[2].

وبعد أن يستعرض طه حسين حالة هؤلاء، وهم بالألوف، بل بعشرات ومئات الألوف، يخلص إلى نتيجة مؤداها أن مشكلة هؤلاء لا تحل بالتصدق والإحسان، لأن الإحسان والتصدق قد يعينان على تفريج أزمة عارضة، وعلى طعام العيال يوماً أو يومين أو أياماً، ولكنهما لن يستطيعا أن يكفلا حياة يأمن فيها المحتاج من البؤس والجوع. وبعد أن يكشف طه حسين عن أن هذه المشكلة الاجتماعية ليست هي بنت اليوم أو الأمس، بل هي متمادية في القدم، وإهمال المجتمع والدولة لها معرق في القدم، ما ينتج نتائج منكرة مخزية، ويساعد على تفسخ المجتمع، وانتشار الفساد الخلقي، وانتشار الرشوة، والسرقة، وقطع الصلة بين الناس، وقسوة القلوب، وفساد الضمائر، وشيوع الذلة والمسكنة والهوان، وتفشي الظلم والاستبداد وغير ذلك من مفاسد ومخازي[3].

وبعد أن يبين طه حسين ما للموظف من خدمات على الناس والدولة، وما يجب له عند الآخرين من توفير الحرية له والكرامة والعزة، لأنه صلة الوصل بالناس، وترجمان الدولة، وممثلها في الدوائر والمصالح والمؤسسات، ينتقل من تشخيص الداء إلى إعطاء الدواء، والدواء بيد الدولة التي يحملها طه حسين المسؤولية، وهي تتمثل بإعادة النظر في النظام الاجتماعي السياسي، فيما تجبي الدولة من الضرائب، وما تمنح من المرتبات. الضرائب قليلة جداً، أقل مما ينبغي، يقول طه حسين، و «المرتبات قليلة جداً، أقل مما ينبغي، والعدل يقتضي أن تضاعف الضرائب، وأن تضاعف المرتبات، وأن تكف الدولة عن الإسراف في الأموال العامة، وأن يكف الأغنياء عن الإسراف في أموالهم الخاصة. وليس إلى

---

(١) المعذبون في الأرض ص ١٤٩. (٢) نفسه ص ١٥٠. (٣) المعذبون في الأرض، ص ١٥٢.

الإصلاح الاجتماعي من سبيل إلا إذا وجدت الأداة السياسية الصالحة. . .»[١]

ج ـ المقالة الأدبية الثقافية:

وثمة نوع من المقالة يطلق عليه اسم المقالة الثقافية، وفيها يعرض الأديب أو الكاتب إلى موضوع أو إلى مشكلة تمسّ الأدب والثقافة، فيعمل على وصفها، وتحليلها، ونقدها، وإعطاء الحل الملائم لها؟ وقد أثار طه حسين في إحدى مقالاته التي يضمها كتابه القيم «خصام ونقد»، وهي بعنوان: «الكنوز الضائعة»، كان نشرها في جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٥، أثار مشكلة ثقافية تتمثل بجمود المثقف أو الأديب عند حد محدود من العلم أو الثقافة أو الأدب، دون تجاوز هذا الحد إلى مسافة تقصر أو تطول. يستهل طه حسين مقالته تلك بالحديث عن الفنون والعلوم التي لا يحصيها محصٍ، والتي هي بمثابة كنوز تطمح النفس إلى استقصائها وجمعها إن وجدت إلى ذلك سبيلا. وما هذا بعسير، لأن من طبيعة الفن أو العلم أن يكون مباحاً مبتذلاً للجميع، وهو أي الفن، أو العلم، أو المعرفة عموماً، يزيدها خصباً إلى خصب، وثراء إلى ثراء، انقطاع الناس إليها، والاطلاع عليها، أو قل إنها، وبحسب تعبير طه حسين «لتحيا بالإقبال عليها، وتموت بالزهد فيها»[٢]. وليس المهم في نظر طه حسين أن يقرأ الإنسان كل ما كتب أو يحيط بكل ما أنتج غيره من الناس، وإنما المهم أن يظفر بالوسائل والأدوات التي تتيح له أن يضيف في كل يوم إلى علمه علماً، وإلى ثروته العقلية والشعرية ثروة، وبهذا يكون هو الإنسان حقاً، وتكون المعرفة هي السعادة، فعلاً[٣].

والظاهرة اللافتة للنظر، بهذا الخصوص في صفوف المصريين هي فقدان هذه الوسائل ما يحول بينهم وبين الثقافة، وما يجعل الجهل يرين على عقولهم. والذي يحزّ في نفس الكاتب أكثر أن طائفة من المثقفين من المصريين، وقد أتيحت لهم وسائل الثقافة، لا ينصرفون إليها ليزدادوا ثقافة أو علماً، بل هم ينصرفون عنها، قصداً، أو إهمالاً، لينفقوا أوقات فراغهم فيما لا ينفعهم من أحاديث اللغو وغير ذلك ما يعرض ثقافتنا للجمود، فهي تنقص ولا تزيد، أو هي تراوح مكانها، فيما لو أقبل الناس على القراءة والانتفاع بهذه الكنوز الكثيرة المضيعة، يقول طه حسين «لدعتهم القراءة إلى القراءة، ولأغراهم العلم بالعلم

---

(١) نفسه ص ١٥٣.

(٢) حسين طه: خصام ونقد، ص ١٦٦. ط ٢. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٨.

(٣) نفسه ص ١٦٧.

كالذي يكسب المال القليل من تجارة أو صناعة فيطمع في أن يضيف إليه مثله أو أمثاله، ويتاح له من ذلك ما يريد بمقدار ما يبذل في سبيله من الجهد وما يلقى في سبيله من العناء»[١].

إن مصيبة المثقفين المصريين تكمن في أنهم لا يقرأون أدباءهم الذين يعيشون بينهم، فكيف يقرأون غيرهم من أدباء الأمم الأخرى؟ وتكمن في أنهم لا يفهمون الحياة التي يحيونها، فكيف بفهمهم حياة الآخرين؟ ونحن نعلم أن الحياة متصل بعضها ببعض، والشعوب تأخذ من بعضها بعضاً، وهكذا الثقافة، فلا ثقافة محدودة إقليمية، أو محلية، بل ثمة ثقافة عالمية تأخذ وتعطي، وتتلاقح فيما بينها. إن لنا ماضياً، يقول طه حسين، «من الحق علينا لأنفسنا أن نعرفه، وسبيلنا إلى معرفته أن نقرأ ونفهم، وندرس ونذوق، وما أشد زهدنا في القراءة والفهم والدرس والذوق»![٢].

ثم يعرض طه حسين لحال المثقفين المصريين من حملة الشهادات والإجازات الذين وقفوا عند حدود الإجازة أو الشهادة، يعلّمون الأجيال وتلاميذهم وطلابهم بالذي اكتسبوه أو حصلوه في الشهادة، ولا يذهبون إلى أبعد من هذا الحد، فهم كالببغاوات تردد ما حفظت، لا تجدده، ولا تغيره، ولا تزيد فيه. إنهم يصلون إلى مرحلة يملّون فيها التعليم، ويملون تلاميذهم، وتلاميذهم تملّهم، فيصبح التعليم صناعة جامدة لا حظ لها من الحياة الخصبة التي تنفع أصحابها، وتنفع الناس من حولهم، فالعلم الذي لا يتجدد، يقول طه حسين، «كالماء الراكد الذي لا يلبث أن يأسن ويسرع إليه الفساد»[٣]. وليس المعلمون هم الذين لا يقرأون، ولا التلاميذ الذين يملون، ولكن المثقفين في معظمهم هم أيضاً لا يقرأون ولا يحبون أن يقرأوا. صحيح أنهم يقرأون الصحف، وما أكثرها، وبعض الأدب اليسير من هنا وهناك، ولكنهم هم أبعد الناس عن قراءة الكتب القيمة التي تحتاج قراءتها إلى الجهد والذوق والعناء. إن قراءة الكتب القيمة ولو لساعة في النهار، وهي أشبه شيء بالرياضة، هذه تقوي الجسم، وتلك تقوي الذهن، وتغني النفس، وتشبع العقول. بالقراءة اليومية الجادة الصارمة، نصل إلى اللذة المنشودة، والمتعة المرجوة، وقراءة الكتاب تجر إلى كتاب آخر، وهذا يستدعي ثالثاً وهكذا دواليك، وهذا ما يشجع على التأليف، والترجمة، وما يحرك المسؤولين إلى توفير الكتب، وإنشاء المكتبات، وبهذا يحيا المثقف الثقافة الحقة، والعلم والأدب، ويحيا الوطن، وتحيا

(١) خصام ونقد ص ١٦٩. (٢) خصام ونقد ص ١٧٠. (٣) نفسه ص ١٧٢.

الأمة، وتحيا بها الأجيال، ولكن ما أكثر ما في الأرض من كنوز العلم والفن والأدب، يقول طه حسين، «وما أقل حظنا من هذه الكنوز»[1].

ثانياً: الأدب القصصي

من أنواع النثر الأدبي، القصة، وهي عبارة عن عرض حادثة أو أكثر من حادثة، يقوم بها شخص أو أكثر من شخص، في إطار من السياق العام يعبر فيه الكاتب عن أفكاره، ومشاعره من خلال التعبير عن أفكار الأشخاص وتحليل نفسياتهم. ولا بد في القصة من توافر عناصر معينة، هي السرد أو الحوار، والأحداث التي تجري في زمان معين، ومكان معين، أو تعبر عن حالة نفسية معينة، وشخصيات القصة، وهي من أهم العناصر، فعلى الكاتب أن يحسن رسمها تبعاً للموضوع، وتطور الأحداث؛ أضف إلى ذلك أنه لا بد من توافر عنصري الأسلوب والمنهج في العرض، فالأسلوب يجب أن يكون متناسباً مع الموضوع، متنوعاً حسب تطور المشاعر والأفكار ومنهج العرض يختلف باختلاف أسلوب الكاتب ومذهبه، وموضوعه، فقد يكون عماده السرد المباشر منطلقاً من تمهيد يمهد به للقصة، منتقلاً إلى الحادثة التي يتمخض عنها أحداث أخرى متطورة متشابكة إلى أن تبلغ الذروة في التأزم، فالحلّ. كل ذلك من خلال سياق أو حبكة فنية متماسكة فيها التشويق، والتسلسل والترابط المحكم.

والقصة على أنواع، منها الملحمة، وهي قصة طويلة، شعراً أو نثراً، تعتمد على الخوارق والخيال والأسطورة؛ والمسرحية، وهي تقوم على الحوار، لا العرض والسرد؛ والرواية، وهي قصة طويلة تتناول موضوعاً شاملاً زاخراً بالحياة، وفيها التحليل الجزئي في عرض الحالات النفسية والمواقف؛ والقصة، وهي أقصر من الرواية، تعرض جانباً أو أكثر من جوانب الحياة، دونما عمق أو شمول، وتعتمد على تحليل الشخصيات والمواقف، وهي على أنواع؛ والأقصوصة ويتناول فيها الكاتب جانباً ضيقاً من جوانب الحياة، أو موضوعاً محصوراً، ولا تتسع لتحليل نفسي شامل، أو تطوير متشعب. هذا وتتنوع القصص بحسب المنهج، إذ ثمة القصص الواقعي، والرمزي والعقلي، والتجريدي، والخيالي... وبالنسبة إلى أديبنا طه حسين، فإنه كتب في الرواية والقصة. وكتب الأقصوصة، كما سيتضح لك في البندين التاليين:

---

(١) خصام ونقد ص ١٧٧.

أ ـ في القصة والرواية:

ثمة مؤلّفان لطه حسين، يمثلان فنه الكتابي في الرواية والقصة أصدق تمثيل وهما: «دعاء الكروان» و «شجرة البؤس». ونختار الثاني لأنه أقرب إلى الكمال، ويتضمن أبعاداً اجتماعية، وخصائص فنية وأسلوبية ومعنوية مهمة، تدور أحداث هذه القصة الرواية حول رجلين تاجرين أحدهما من القاهرة، والآخر من إحدى مدن الإقليم في الصعيد. الأول أنجبت له زوجته ابنة وصبيّين، الابنة اسمها نفيسة، وهي دميمة في أقصى درجات الدمامة والقبح، والثاني، واسمه علي، وله ابن اسمه خالد في غاية التدين والورع والتردد على حلقات الذكر. وكان بين التاجرين زيارات متبادلة، وصلات بالشيخ في المدينة، ورغب الشيخ أن يزوج خالداً بنفيسة، بناء على تصوّر قرآني، فأذعن أبو خالد، وأذعن خالد لأمر الشيخ، لكن عبد الرحمن، أبا صالح، القاهري أبى ذلك بحجة أن ابنته نفيسة دميمة جداً فهي لا تصلح لخالد، ومثله أبت أم خالد التي قالت إن زواج نفيسة بخالد سيكون شجرة بؤس في العائلة ستفرخ، وتتشعب. لكن وتحت تأثير الشيخ، واحتراماً لإرادته ثم زواج خالد بنفيسة. وتموت أم خالد كمداً. فيطلب أبو خالد من ولده أن يزوجه مثلما زوجه بنفيسة، فيطلب إلى الشيخ امرأة لأبيه، فيتزوج بامرأة، ثم بثانية، ثم بثالثة، بعضهن توفي، وبعضهن طلّق، حتى بلغت ثماني نساء. وتنجب نفيسة لخالد ابنتين اثنتين هما: سميحة، وكانت آية في الجمال، وجلنار، وكانت في غاية البشاعة كأمها نفيسة. ويدور صراع نفسي حاد في دخيلة خالد، وهو ينظر إلى سميحة، من أين لها هذا الجمال، وهو قبيح، ونفيسة في غاية القبح، لكن سرعان ما يهدأ، امتثالاً لأمر الشيخ، ولقضاء الله وقدره. وتتلبس الجنيّات نفيسة، فتصبح أسيرة الهواجس، وتكاد تجنّ، وتمرض وتسوء حالتها، فيأتي أبوها وأمها لزيارتها، ويطلبان من خالد أن يطلقها بحجة أنها مجنونة وقبيحة. لكن خالداً يرفض. ويرفع الأمر إلى الشيخ فيقترح أن تذهب نفيسة ومعها ابنتاها إلى القاهرة لتقيم في بيت ذويها بعيداً عن خالد الذي صار بدوره نهباً للوساوس والشكوك، ويخطب الشيخ ابنة خالد وعمرها سنتان، لسالم بن سليم، عم خالد، وعمره سنتان، على أمل الزواج حينما يكبران، وتسوء حالة خالد المادية، وحالة أبيه علي، فيضطر خالد إلى الوظيفة كاتباً في إحدى محاكم الشرع بأربعة جنيهات شهرياً، ومثله سليم الذي يتوظف كاتباً، بأربعة جنيهات.

ثم يتوسع طه حسين في عرض هذه الأحداث المتنامية المتشعبة، محللاً،

معللاً، فيحدثنا عن وفادة الشيخ على أبي نفيسة في القاهرة، ومعه عشرات الأشخاص، وإقامته في داره حيث الولائم، وحلقات الذكر، والتلاوة والأذكار، وحيث الناس زرافات ووحداناً، ثم عن عودة الشيخ إلى مدينته وقد حمل معه من كل ما غلا ثمنه وخف وزنه وكيف أن زيارة الشيخ عدّها أبو نفيسة خيراً نزل عليه من السماء رغم تراجع تجارته، وكساد عمله.

في المدينة، وإثر عودة الشيخ إليها، يأمر الحاج مسعود، وهو أحد الأثرياء الطيبين الملازمين له، بتزويج ابنته «منى» من خالد، ويأمر الناس أن تفد إليه طيلة شهر رمضان، وعلى نفقته سيبلغها الحج إلى مكة، ويموت الشيخ بعد أن يعين خليفة له هو ولده الشيخ إبراهيم. وتبقى صلة خالد وأبي خالد، والحاج مسعود بالشيخ الجديد الذي أمر خالداً بإحضار نفيسة من القاهرة ومعها ابنتاها إلى المدينة ليقمن في دار أبي خالد الواسعة. ويشرف عليهن «نسيم» الخادم المطيعة، ونفيسة تنتابها موجات الهستيريا والجنون بين الحين والآخر. وتضيق حال أبي خالد المادية، وتكسد تجارته، وتغلبه كثرة العيال والأولاد والأحفاد، ويعطيه خالد من راتبه ثلاثة جنيهات من أصل أربعة، لكن أبا خالد يغضب ويثور طالباً الراتب كله، ثم طالباً منه إخلاء البيت.

ويعلن زفاف منى ابنة مسعود على خالد، بأمر من الشيخ إبراهيم. وتتفاقم حالة نفيسة إثر وفاة والدتها، ويرزق خالد من منى بولد ذكر اسمه محمد، ثم يرزق بثانٍ، فثالثٍ، ويهيء الشيخ عملاً جديداً لخالد في مدينة ثانية قريبة من الأولى، وكانت هذه المدينة قد استعصت على الشيخ ولم تفتح له أبوابها لأن طريقته بخلاف طرقهم الصوفية. وينتقل خالد إلى المدينة الجديدة ويستلم منصبه فيها وتتحسن أحواله ويرزق بأولاد أكثر وبنات. ويؤتى بنفيسة إلى دارته الجديدة، وتقبلها منى. ويعلم خالد أولاده تعليماً حديثاً، ويزوره سليم طالباً إليه يد ابنته «تفيدة» لابنه سالم، فتغضب جلنار، وهي التي كانت مخطوبة لسالم وهي صغيرة. ويغضب أولاد خالد من منى بحجة أن جلنار أكبر من تفيدة، فعلى سالم أن يتزوج الكبرى.. وينفرط عقد الأولاد عن أبيهم ويهجرون المدينة. ويتوصل إلى حل معقول هو أن يتزوج سالم تفيدة، وعلي أخوه الأصغر جلنار، دون استشارة البنتين. ويتم الأمر، لكن زواج جلنار ينتهي بالطلاق، وتستمر شجرة البؤس في التفريخ والتشعب.

والغاية التي ينتهي إليها الكاتب من وراء قصته أو روايته هذه، والتي ساق

أحداثها عبر سنين طوال، هي تصوير حالة الشعب المصري، وجهله، وفقره، واستسلامه للقدر، وللجهل، ولآراء المشايخ من أصحاب الطرق الصوفية، ولحالات الطلاق المتكررة، وللزواج المتعدد، والجمع بين الأزواج. . . ولا شك في أن غاية الكاتب، غاية نقدية اجتماعية، لكنه توصل إليها عن طريق عرض هذه الأحداث، في سياق قصة تتسلسل فيها الأحداث، وتزخر بالأشخاص، والمفاجآت، والعقد، والحلول، وفيها عنصرا الزمان والمكان، والتشويق، والتحليل، إضافة إلى براعة السرد والقصص، واستخدام الأسلوب الأدبي الجميل. ومن النماذج الدالة على أسلوب الكاتب، وقد ضمنها العبرة المستفادة من الرواية، قوله في الفصل ما قبل الأخير:

«ومن الحماقة الحمقاء، والجهالة الجهلاء أن يحاول محاول إحصاء الأيام والليالي وهي تتتابع ويقفو بعضها بعضها أثر بعض، لا يدري أحد متى بدأت، ولا يعلم متى تنتهي، وأشد من ذلك حمقاً، وأعظم جهلاً أن يحاول محاول إحصاء الحوادث التي تقع في هذه الأيام المتتابعة والليالي المتناصية فليس إلى إحصاء هذه الحوادث من سبيل حين تحدث لفرد واحد، فكيف إلى إحصائها حين تحدث لأسرة كبيرة أو صغيرة، وكيف بها حين تحدث لمدينة من المدن أو إقليم من الأقاليم، أو جيل من أجيال الناس!؟ . . .»[1].

ب ـ في الأقصوصة:

قلنا في التعريف بالأقصوصة إنها قصة قصيرة يتناول فيها الأديب جانباً ضيقاً من جوانب الحياة، أو موضوعاً محصوراً، ولا تتسع كثيراً لتمثيل نفسي شامل أو لتطوير متشعب. وما أكثر ما تناول طه حسين هذا النوع الأدبي القصصي، تجده مبثوثاً في أكثر من كتاب، لكنا نحن، اخترنا من كتابه «المعذبون في الأرض» نموذجاً لهذا الفن الأدبي، وتحديداً اخترنا من هذا الكتاب أقصوصة تحمل عنواناً لها هو: «خديجة». ومن هي خديجة؟ إنها من أسرة بائسة شقية من تلك الأسر المصرية البائسة، وما أكثر البؤس في الأسر المصرية، وما أكثر الأسر التي فيها البؤس! نشأت خديجة في القرية، وكان لها جمال يلفت النظر بخلاف والديها القبيحي الشكل. يصف الكاتب جمال خديجة، وإشراق وجهها ونقاءه، وعذوبة صوتها وصفاءه أجمل وصف، وفي أدق تعبير وتصوير، كمثل قوله مثلاً: «ولم تكن تمتاز

(١) حسين، طه: شجرة البؤس، ص ١٦٨، دار المعارف بمصر ١٩٧٢.

بإشراق الوجه ونقائه فحسب، وإنما كان إشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة في الجمال والحسن، قد أسبغت على جسمها كله، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع في تمهل وتأنق وأناة كأحسن ما يتمهل المثال البارع، ويتأنق ويستأني بعمله فيخرج تمثاله آية في الروعة والفتنة للعيون والقلوب جميعاً. كان صوتها إذا تكلمت رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً. . .»[1] أما الناس فكانوا يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل: من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح بهذه الآية التي استأثرت بأرقى الحسن والجمال، وأما فقيه القرية فإذا سئل عن سرّ هذا تلا قوله تعالى: **﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾** وأما الأم واسمها محبوبة، فكانت تكد ليل نهار وهي تعمل خبّازة في هذه الدار من دور القرية، وتلك، لتعود بعد عناء، بقليل من الخبز. وأما شعبان أبو خديجة، فكان بنّاء متواضعاً يقيم البيوت والحجرات التي تتخذ من الطين الغليظ، وهو عبارة عن تراب يجمع، فيصب عليه الماء، ويخلط به بعض الهشيم، ثم يمد عليه سقف من سعف النخل يأوي إليه بؤساء القرية وفقراؤها. وكان يعمل اليوم أو اليومين في الأسبوع، ويتعطل أكثر أيام الأسبوع[2]. وأما خديجة، وتحت إلحاح الحاجة فإنها كانت تعمل خادماً في دار من دور أهل اليسار، تقبل مع الصبح في خدمة أهل الدار، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه. وكانت تخفي حزنها، وربما نمت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة، تغمر هذا الصوت الممتلىء العذب فتترك في السامعين أثراً غريباً. وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل[3].

وأما ربة الدار التي تعمل فيها خديجة فكانت محبة لها، رفيقة بها، تحرص على أن يكون رفقها بخديجة وأسرة خديجة متجدداً، وعطفها عليها متصلاً.

وذات يوم سمعت ربة الدار صياحاً في الباحة، صياح محبوبة، وهي تنهال بالضرب على خديجة، وغير بعيد منهما طبقان من خزف، ومحبوبة تنظر إلى خديجة وتسأل عنهما الفتاة، في حين تمعن يدها في جذب الشعر، وتمعن الأخرى في رفع العصا وخفضها، ظناً منها أن ابنتها سارقة تخون ربة الدار وتختلس ما عندها من متاع، ومن هذا المتاع هذان الطبقان من الخزف[4].

---

(١) المعذبون في الأرض، ص ٦٠.

(٢) نفسه ص ٦٣.

(٣) المعذبون في الأرض، ص ٦٤.

(٤) المعذبون في الأرض ص ٦٧.

وتتضح الحقيقة، وهي تتمثل بأن ربة الدار كانت تبعث في كل ليلة بهذه الأطباق وفيها الطعام مع خديجة إلى ذويها، لكن خديجة كانت تأبى أن تأخذ الطعام إلى أبويها وإخوتها حرصاً على كرامة الأسرة، فتوزع الطعام على الفقراء أو الكلاب أو الدجاج وتعود بالأطباق فارغة. وفي هذه المرة نسيت أن تخبئهما، ففاجأتها أمها التي ظنت بها السرقة فانهالت عليها ضرباً.

وتشيع في القرية قصة خديجة. وتعفّفها الذي قلّما يوجد عند الأغنياء، وحيائها الجمّ، ويلهج شبان القرية بجمالها وحسنها، فيتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة خديجة الفقيرة، وكان فتى قوياً موفور الصحة، جميل المنظر، صادقاً في حبه، لكن خديجة تمتنع من هذا الزواج، مؤثرة حياتها هذه التي تحياها خادماً على تلك الحياة التي تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معرفة أهلها؛ وبتوسط من ربة الدار مخدومة خديجة، ترضى هذه بعد لأي، على أن يكون الاحتفال بزفافها في بيت ربة الدار، وترتفع الأهازيج، وينطلق رصاص البنادق ابتهاجاً بدخول شعبان على خديجة، وترفع الراية الحمراء القانية دلالة على عفّة خديجة وعذريتها. ويرتفع الضحك، وخديجة كئيبة كل الكآبة. وتمضي الأيام وخديجة ساهمة كاسفة البال. وذات يوم تعود صبايا القرية من النهر وقد ملأن جرارهن إلا جرّة خديجة فإنها كانت مملوءة وإلى جانبها بعض الحلي. والتمست خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون... لقد كتب على محبوبة، يقول الكاتب، أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز، وكتب على شعبان أن لا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين، ولم يستطع الحب أن يغسل حياء خديجة ونفسها الطاهرة فغسله الموت. إنها واحدة من مآسي الحياة في الريف المصري، وما أكثر تلك المآسي[1].

وهكذا، فإن طه حسين في هذه الأقصوصة، كما في سائر أقاصيصه، إجمالاً، يتوفر على رسم جانب من جوانب المجتمع بالتحليل والنقد والتوجيه، وذلك عن طريق نقل الواقع في إطار فني، وفي مكان تدور فيه الأحداث، وزمن تستغرقه، وأشخاص يقومون بالأحداث. لقد وفق طه حسين في سرده القصصي المشوق، ورتب الأحداث ترتيباً منطقياً، إذ كل حادثة تمهد لظهور التالية، فتحرك شوق القارىء إلى المعرفة، وتثير فيه حب الاستطلاع. وفي الأقصوصة مشاهد

---

(١) نفسه ص ٧٤.

كثيرة، وحوار يوافق طبيعة المتحاورين، وسياق قصصي ممتع لا يخلو من وصف رائع جميل، توافرت فيه جميع عناصر الفن الكتابي، والخصائص الأسلوبية، وإليك هذا المشهد الفني من الأقصوصة نفسها، فإنه نموذج لكتابة طه حسين، في سائر أقاصيصه، تلك الكتابة التي تشهد لصاحبها بالألمعية الأدبية، والمقدرة الفنية، لا في أقاصيصه وقصصه ورواياته، فحسب، بل في أدبه الوصفي أيضاً، ونقده الأدبي، الذي هو في غاية الروعة والإتقان. يصف طه حسين مشهداً ريفياً عند انبلاج الفجر واستقبال النهار، مشهداً أعقب زواج خديجة التي ما زالت حزينة كئيبة لإكراهها على الزواج، ومس حيائها النقي، ونفسها الطاهرة:

«وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر وإشراقة الشمس، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم، وحفيف الأوراق، وهفيف الغصون، وسقوط الندى، وغناء الطيور والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل وأول عهدها بالنهار. ثم يعدن إلى القرية صامتات قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلاً، وأخذت الكآبة تفشى وجوههن شيئاً فشيئاً، وأخذ الهم يسقط في قلوبهن فنوناً وألواناً، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل»[1].

ثالثاً: أدب السيرة الذاتية

أ ـ الأيام

أدب السيرة نوع من أنواع الأدب، وفرع من فروع النثر الأدبي، بل هو نمط من أنماط الأدب القصصي يتوفر فيه الكاتب على سرد قصة شخص ما، فإن تحدث عن ذاته، ونفسه، شخصياً، وسرد علينا قصة حياته، وما مرّ معه من حوادث، فأدبه أدب السيرة الذاتية، وإن تحدث عن غيره، فهو أدب السيرة الموضوعية. وفي الحالين فلا بد في أدب السيرة، والذي هو فرع من الأدب القصصي، كما قلنا، من مراعاة أمور عدة أهمها الفكرة، أو الموضوع، والمنهج، والأسلوب الذي يشترط فيه أن يكون أسلوباً أدبياً متناسباً مع الموضوع متنوعاً

(١) المعذبون في الأرض، ص ٧٣.

حسب تطور الحوادث والمشاعر والأفكار. وطه حسين، بهذا الخصوص، من ألمع الأدباء الذين كتبوا في السيرة، وحسبه كتابه «الأيام» وفيه عرض لشريط حياته من لدن كان في الكتاب، بالريف المصري، ثم في القاهرة، بالازهر، ثم في باريس، بالجامعة، وفيه الفكرة، والعبارة، والطرفة، والعبرة، والألم، والفرح، والتجربة الذاتية، والاجتماعية، والإنسانية وحسبنا منه الجزء الأول، لأنه أقرب إلى الفطرة، وإلى البراءة، والصدق، والنفس الشقية المتألمة. نفس الطفل الأعمى الذي فقد نعمة البصر. في الفصل الأول من هذا الكتاب القيم يتذكر طه حسين، بيته الذي ولد وترعرع فيه، فيحدثنا عن القصب الذي كان يقوم أمامه، وهو قصب طويل متلاصق بعضه ببعض، والقناة التي كانت وراء القصب، وصوت «حسن» الذي كان ينشد الناس أخبار أبي زيد، وخليفة ودياب، وأخته التي كانت تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه، وتلقي عليه لحافاً يغطي رأسه خشية عفاريت الليل وأشباحه. وما كان ينام إلا قليلاً، وما ينهض إلا عند نهوض أبيه الشيخ متهيئاً للصلاة[١]. وفي الثاني منه يحدثنا عن القناة عينها ومدها الزرع والنبت بالحياة، وجفافها حين انقطاع المياه عنها، وبحث الأطفال في أرضها الرخوة عما تخلف من صغار السمك، لعل واحدة منها تحمل في أحشائها خاتم سليمان الذي حدثوه عنه، وعن فعله الأعاجيب. كما يحدثنا عن سعيد الأعرابي الذي كان قريباً من بيته وهو معروف بالمكر والشر، ومثله امرأته «كوابس»، وعن كلاب العدويين، وشجرات التوت والتفاح التي كانت وراء السياج عند شاطىء القناة[٢].

وفي الفصل الثالث يحدثنا طه حسين عن إخوته الأربعة عشر، وأمه ورحمتها به وإهمالها، وأبيه ورفقه به وإهماله، والازورار عنه من حين إلى حين، واحتياط إخوته الذي كان يؤذيه، وتبينه سبب هذا كله، وهو العمى[٣]. وفي الرابع يتحدث عن فضوليته وما يكلّفه هذا الفضول من الألم والعناء، ومنه تناول الطعام بكلتا يديه ما أضحك الآخرين وأورثه حسرة، وعوّده أن يأكل لوحده خشية السخرية والضحك تماماً كما فعل أبو العلاء في حياته، كما يحدثنا عن نفسه كيف حرّم عليها كثيراً من ألوان الطعام والشراب واللعب، للسبب عينه، سبب إثارة ملاحظة الآخرين. كما يحدثنا عن حسن استماعه إلى مجالس القصاص، ووعظ الوعاظ الذين كانوا يجتمعون في بيت

---

(١) الأيام ١/١٣ ـ ١٢. (٢) نفسه ١/١٣ ـ ١٦. (٣) الأيام ١/١٧ ـ ١٨.

أبيه بعد صلاة العصر، وصلاة العشاء؛ وما بلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية والقرآن، الشيء الكثير[١].

ويمضي طه حسين في الحديث عن سيرته، فيحدثنا عن الكتّاب الذي تعلم فيه القرآن، وعن «سيدنا» معلم الكتاب البدين، المحب للغناء، الشره، السمج، وعن حفظ الطفل القرآن وختمه، والحفلة التي أقامها أبوه الشيخ «لسيدنا» بمناسبة ختم الطفل القرآن[٢]. في فصل خامس، وعن امتحان أبيه إياه في حفظ القرآن ونسيانه ما بعد (طسم) من سورة الشعراء، وسورة النمل وسورة القصص، ثم امتحان سيدنا إياه، وتوبيخه لنسيانه، في فصل سادس[٣]؛ وعن عودته إلى الكتاب مجدداً وحفظ القرآن حفظاً جيداً، في فصل سابع[٤]؛ وعن تكليف «سيدنا» الطفل وقد صار شيخاً لحفظه القرآن حفظاً متقناً، تكليف التعلم على عريف الكتّاب في فصل ثالث[٥]؛ ثم يحدثنا عن علاقة الصبي بالعريف، وعلاقة العريف بالأستاذ، وتكليفه العرافة وتدريسه بعض سور القرآن، لبعض الصبية، والصبايا وفيهن نفيسة، في فصل تاسع[٦] ثم عن نسيانه بعض سور القرآن وتأنيب أبيه له، وكذب الشيخ، ونسيانه إحدى نعليه في المسجد، في فصل عاشر[٧]؛ ثم عن تلقيه القرآن مجدداً في البيت على يد فقيه اسمه عبد الجوّاد، وعن احتقاره للفقيه وللشيخ معاً، في الفصل الحادي عشر[٨]؛ وفي الفصل الثاني عشر حدثنا طه حسين عن احتفال قريته بوفادة أخيه الأزهري، وعن فرحته بالكتابين اللذين أهداهما إليه وهما: ألفيه ابن مالك، ومجموع المتون، وهما يعدّانه لدخول الأزهر[٩]. وفي الثالث عشر يحدثنا عن حفظه الألفية كلها، وعن ذهابه إلى المحكمة. والتذاكر بالألفية مع قاضيها[١٠]. وفي الرابع عشر يحدثنا عن أنواع العلماء الذين كانوا في المدينة والريف، منهم الحنفي، والشافعي، والحنبلي، ومنهم اللّدني، وصاحب الطريقة في التصوف، وأكثرهم جهلة أغبياء[١١]. وفي الخامس عشر يقص علينا طه حسين مشاهداته لما كان شيوخ الصوفية ينزلون على أبيه بالعشرات ومعهم

---

(١) نفسه ١/١٩ ـ ٢٧.
(٢) الأيام ١/٢٨ ـ ٣٦.
(٣) نفسه ١/٣٧ ـ ٤٢ .
(٤) الأيام ١/٤٢ ـ ٤٤.
(٥) نفسه ١/٤٥ ـ ٤٧.
(٦) الأيام ١/٤٨ ـ ٥٥.
(٧) نفسه ١/٥٦ ـ ٦٢.
(٨) الأيام ١/٦٣ ـ ٦٦.
(٩) نفسه ١/٦٧ ـ ٧٢.
(١٠) الأيام ١/٧٣ ـ ٧٨.
(١١) نفسه ١/٧٩ ـ ٨٧.

الأتباع، فيعقدون حلقات الذكر، ويطعمون ويشربون، ويتحدثون في الكرامات ورؤية النبي ﷺ[1]. أما في السادس عشر فيفيض الكاتب في الحديث عن أصحاب البدع والمخاريق والسحر والتصوف، والطلسمات، والمذنبات وأشراط الساعة، والرقى والكتب التي يكتبها شيوخ الطرق ويدلسون بها على النسوة والبسطاء، وعن الكرامات وأصحاب الكرامات، والأدعية، والنذور، وغير ذلك مما كان في الريف والأقاليم، وقد تأثر بها هو شخصياً وسرعان ما كذبها واتهم أصحابها بالكذب والجهل[2]، في الفصل السابع عشر، يحدثنا عن المفتش الزراعي المطربش الذي يتكلم الفرنسية، والذي هبط بلدتهم وعلمّ طه تجويد القرآن وترتيله[3]. أما الفصل الثامن عشر، وهو من أمتع الفصول وأشدها تأثيراً في النفس، فهو فصل الحزن والكآبة وموت أخت طه الصغرى وأخيه الشاب، وجده، وجدته. إنه فصل الأحزان التي تركت أثرها الذي لا يمحى في نفس الصبي حسين[4]. وينهي طه جزأه الأول من الأيام بالفصل التاسع عشر فالعشرين، وفيهما يحكي قصة ذهابه إلى الأزهر وحضوره درس الفقه والتوحيد والنحو والمنطق، والسخف الذي شاهده، وسمعه من أشداق الأساتذة المتفيهقين.

ولن نطيل الكلام على الجزء الثاني من الأيام، والذي هو عبارة عن الحديث عن سيرة حياته في الأزهر والقاهرة، لمدة أربع سنوات فعرض علينا شيئاً من مشاهداته، وخواطره ومدارساته، وتلقيه العلم الديني والنحو والصرف، والمنطق، والفقه، وشيئاً من الأدب؛ كذلك لن نطيل الكلام على الجزء الثالث، وفيه يحدثنا عن تجربته العلمية في الأزهر، وكيف سقط في امتحان العالية، وحبّه لأول مرة، ويحدثنا عن أساتذته، وكيف تعلم الفرنسية، والفلسفة. وعن ذهابه إلى فرنسا، وقصة حبه في باريس، وتعرفه إلى سوزان. . . المهم أن طه حسين، في هذا السفر القيم، «الأيام» أثبت أنه أديب متمكن، وقصاص ممتع القصّ، وكاتب سيرة من الطراز الأول، وصراحة، وحديث شيق، وأسلوب رائق، وبلاغة سهلة ممتنعة. إن الأيام من أمتع ما كتب في أدب السيرة حتى الآن.

ب ـ نموذج من الأيام

وما أجدر أن نختم «أيام» طه حسين بهذا النموذج المأخوذ من الجزء الأول

---

(١) الأيام ١/٨٨ ـ ٩٦.
(٢) نفسه ١/٩٧ ـ ١١١.
(٣) الأيام ١/١١٢ ـ ١٣٧.
(٤) نفسه ١/١٣٨ ـ ١٥٠.

الذي أطلنا الحديث عنه، وفيه تتبين، متعة الأسلوب، وطلاوة السرد القصصي، وحلاوة العرض، والبلاغة السهلة الممتنعة. يقول طه حسين وقد أدرك فقد نعمة البصر التي يتحدث عنها الآخرون، واصفاً ما جرى له، وهو طفل، لما أخذ اللقمة بكلتا يديه، لا باليد الواحدة، وذلك لأنه أعمى:

«كان من أول أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم. وكان ذلك يكلفه كثيراً من الألم والعناء. ولكن حادثة واحدة حدّت ميله إلى الاستطلاع، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن. كان جالساً إلى العشاء بين إخوته وأبيه، وكانت أمه كعادتها تشرف على حفلة الطعام، ترشد الخادم وترشد أخواته اللائي كنّ يشاركن الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون. وكان يأكل كما يأكل الناس. ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب: ما الذي يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء. وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها إلى فمه. فأما إخوته فأغرقوا في الضحك. وأما أمه فأجهشت بالبكاء. وأما أبوه فقال في صوت هادىء حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنيّ. وأما هو ـ أي الطفل ـ فلم يعرف كيف قضى ليلته»[1].

ج ـ نموذج من «المعذبون في الأرض»

وما أجمل أن ننهي هذا الفصل بنموذج آخر منتزع، لا من كتاب «الأيام» بل من كتابه الآخر الذي يمثل القمة في أدب السيرة، روعةً وتأثيراً، وجمال أسلوب، وحلاوة سرد، وطلاوة عبارة، وشدة أسر في البلاغة السهلة الممتنعة، عنيت كتاب «المعذبون في الأرض»، وهو عبارة عن مجموعة من الفصول كان نشرها في مجلة «الكاتب المصري» تتحدث عن سيرة حياته الشقية، والعذاب الذي لاقاه في طفولته منذ أن كان في كتّاب «سيدنا» حتى صار في فرنسا، كما ضمن مقالاته تلك أحاديث شتى في شؤون السياسة والتاريخ والدين والاجتماع، وقد جمعت هذه الفصول في كتاب واحد صدر سنة ١٩٤٨. وإليك هذا النموذج من الأدب الذي هو عبارة عن مزج موفق لأدب القصة والسيرة معاً، اخترناه من الفصل الذي يحمل عنواناً له اسم «صالح»:

«كانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء، فقد ألمّ بها ضيف لهم حظ

---

(١) الأيام ١/١٩ ـ ٢٠.

ومكانة في الإقليم، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدي وإنما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئاً كثيراً. وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف، مهتمة في ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب. فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ، وكان الثريد وهو أول الأصناف قد هيّىء، ولكن تهيئته لم تتم بعد، فقد فتّ الخبز في طبق كبير، وأعدّ المرق وتم إعداد الأرز، وقطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرات... من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يتسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها، وأسرعت هي إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها منذ حين..»[1]

وما أظن القارىء إلا أنه عرف هذا المساء الذي يتحدث عنه الكاتب، هو مساء يوم من أيام عزبة الكيلو حيث ولد طه حسين، وأن الضيف الذي تحدث عنهم هم بعض من كان يتردد على تلك العزبة من أصدقاء، وأن سيدة الدار تلك التي كانت منهمكة في إعداد العشاء، هي أم الكاتب، وأن الشيخ، هو أبوه، وأن الصبي هو الكاتب نفسه، أي طه حسين.

رابعاً: في أدب الرحلة

ومن الفنون النثرية، والأنواع الأدبية التي برع فيها طه حسين أي إبداع، فكان الأديب الذي لا يشق غباره في هذا الميدان، وهو، أي هذا النوع من الأدب، لا يقل روعة عن أدب السيرة ونعني به ما يعرف بأدب الرحلة، وفيه يقص علينا الكاتب مشاهداته وملاحظاته ويعرض علينا شيئاً من محاوراته ومجالساته ومطارحاته وآرائه في المجتمع والحياة والناس، وذكرياته وانطباعاته التي خرج بها، وهو في بلاد الاغتراب، بأسلوب أدبي جميل. ولطه حسين في هذا النوع من الأدب الذي وفق فيه غاية التوفيق، العديد من المقالات أو الفصول التي ضمها أكثر من كتاب، وإن كان من أهمها:

أ ـ رحلة الربيع والصيف:

اثنان هما «رحلة الصيف» و «رحلة الربيع» وهما مجموعان في كتاب واحد

---

(١) المعذبون في الأرض ص ٩.

يحمل اسم «رحلة الربيع والصيف» نشره سنة ١٩٥٧، وهو يعد من أفضل الكتب التي تمثل أدب الرحلة أصدق تمثيل.

في القسم الأول من هذا الكتاب، وهو «رحلة الربيع» يحدثنا الكاتب عن رحلته إلى بلاد اليونان، وتطوافه في جرزها وقلاعها، وتجواله في آثارها التاريخية، وأطلالها التي تحكي قصة العظمة والفكر والفلسفة والإبداع الفني عند اليونان، وآلهة اليونان، وآدابهم وفنونهم، فيؤخذ الكاتب بعظمة الفن وجلال التاريخ، ويتذكر الديموقراطية اليونانية، حيث لم يكن في الدنيا كلها ديموقراطية، ولا دساتير، ولا أنظمة حكم. فيها يستعرض غابر مجد الفلاسفة اليونان، وعباقرتهم فيقول معرباً عن شدة تأثره وإعجابه: «في هذه الرقعة الضيقة من الأرض نما الفن الرائع، وزها الشعر البارع، وازدهر الأدب الرفيع، وطوّف سقراط بفلسفته في الشوارع والأزقة، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها ويهذبوها ويرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة، وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة، وتعيش في جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلاً...»[١].

ثم يحدثنا عن سوفوكل وكيف أنطق أنتيجونا في ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الإنسان وستوجد بعد الإنسان، وهي قوام الخلق وملاك العقل، فليس لأحد عليها سلطان، وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين. كما يحدثنا عن فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، وكيف رسمت هذه الفلسفة مناهج التفكير والسيرة والشعور، وشقت طريق الرقي، وعلمت الإنسان الطموح إلى الكمال، والارتفاع عن النقص، والتنزه عما يشين[٢]. كما يحدثنا عن تصوره وتخيله وهو يجوب تلك الأطلال الخالدة، أنه يسمع خطباء الأتينيين، ويشهد ملاعب التمثيل، ويرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة، وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان...

وخُيل إليه أنه يسمع حوار سقراط، وأنه يرقى إلى مثل أفلاطون، ويعود إلى بحث أرسطو المتواضع الرفيع، الخ[٣]...

---

(١) حسين، طه: رحلة الربيع والصيف، ص ٨. ط ٧. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨.

(٢) نفسه ص ٩.

(٣) رحلة الربيع والصيف، ص ١٠.

وفي فصل ثان من فصول هذا الكتاب القيم يحدثنا طه حسين عن مشاهداته وتأملاته وأفكاره لما صعد إلى قمة البرناس فتجلت له روعة أبولون، ولامس صخرة سلاميس، حيث تحطم أسطول الملك فانتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان[١]. كذلك فهو يعرض لنا مشهداً رائعاً من مشاهد الطبيعة وقد نبت الزهر بين الصخور، فأطال الوقوف ليتزود من عبير لكأنه عبير عرار نجد، وليتغنى في نفسه بسينية البحتري:

صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي   وترفعت عن جدا كل جبس

وسرعان ما ينفلت الكاتب من أحلامه وتذكراته، وقد ارتفعت شمس الضحى، ليدع الأطلال، وليرجع مع صحبه هابطين إلى أثينا، ليستقبلوا الحياة اليومية كما يستقبلها غيرهم من الناس، فجعلوا ينظرون إلى دور التجارة، وما يعرض فيها للبيع والشراء، وجعلوا ينظرون إلى الذاهبين والآيبين يتوسمون في وجوههم وصورهم وأشكالهم. متبينين مظاهر النعيم عند قوم، ومظاهر البؤس عند آخرين[٢] . . .

ثم يحدثنا عن المطاعم في أثينا، والمقاهي، والناس، والصحف، والغلاء، وتضخم الأسعار، وتدني قيمة الدراخما اليونانية. .

ثم يحدثنا عن النزول إلى السفينة. . . الخ. . .[٣].

ب ـ نماذج من أدب الرحلة:

وإن أردت الاطلاع على جمال الوصف في أدب الرحلة، وسلاسة اللفظ، ودقة التعبير، ونسق العرض، فإليك هذه الفقرة التي يصف فيها طه حسين حاله في السفينة وهو في الطريق إلى فرنسا. يقول طه:

«وكان البحر في هذه السفرة يروعني ويخيفني، ويملأ قلبي هولاً ورعباً. كنا في نوفمبر، وكان البحر هائجاً شديد الهياج، وكانت سفينتنا صغيرة ضئيلة عتيقة تحب الترجح والرقص. فكانت تعلو وتهبط وتهوي، وتميل ذات اليمين وذات الشمال، وكانت الريح هوجاء في أكثر الوقت ولا سيما إذا أظلم الليل. وكنت أسمع عصف الريح وقصفها، واصطخاب البحر وهديره، وكنت أحس اضطراب السفينة عنيفاً قوياً، ولم أكن أرى على ذلك كله شيئاً. . . واشتد الذعر،

(١) رحلة الربيع والصيف ص ١٢. (٢) نفسه ص ١٣. (٣) رحلة الربيع والصيف ص ١٤ ـ ٣٠.

وكدت أيأس من كل شيء ذات ليلة حين وقفت السفينة فجأة، وقيل إن بعض أدواتها قد عطب. حينئذ ذكرت مصر في حسرة، وذكرت فرنسا في لوعة، واستلقيت على سريري أنتظر الموت، بينما نهض صديقي فلبس وازّين لأنه كما كان يقول لا يريد أن يموت في قميص النوم، ثم انجلت تلك الغمة، واستأنفت السفينة سيرها هادئة في جو هادىء، وما هي إلا ساعات حتى أشرفنا على الساحل الفرنسي. . . »[١]

وأنت إن أردت التوفر على المعنى، والدقة في التحليل والعرض، فإليك هذه الفقرة التي يصف لنا فيها حياة باريس، يقول من الكتاب نفسه:

«فإن أردت الجد فما أكثر ملاعب الجد، وما أكثر ما يعرض فيها من الفنون، منها القديم ومنها الجديد، منها الهادىء ومنها الضعيف، منها ما يقصد إلى التسلية والعظة، ومنها ما يقصد إلى الدرس والبحث. ومثل ذلك في الموسيقى الجادة والموسيقى التي تتوسط بين هذا وذاك. ولديك الموسيقى الخالصة لا تسمع فيها إلا الأدوات الموسيقية يصحبها الغناء، والموسيقى يصحبها الرقص والغناء جميعاً. ولديك في باريس فنون أخرى تلهيك عن نفسك إن كنت لا تريد أن تعود إليها. وأنت تستطيع أن تأخذ بحظك من هذه الفنون في أي ساعة شئت من ساعات الليل. وفي أي ساعة شئت من ساعات النهار، وفي أي فصل شئت من فصول السنة. . . في باريس الفرح والابتهاج، وفيها البؤس والحزن، وفيها الرجاء والأمل، وفيها اليأس والقنوط، فيها اجتمع كل ما يحتاج إليه الناس وكل ما لا يحتاجون إليه. فيها اجتمع كل ما يشخص الحضارة الإنسانية في هذا العصر الذي نعيش فيه»[٢].

وإن أنت أردت أن تستمتع بجمال الطبيعة، وتعيش أجواء الريف الفرنسي، في أعالي الجبال، والوهاد والوديان، حيث الماء، والزهر والعشب، والشجر، والظل والنور، فإليك هذه الفقرة التي أبدع الكاتب فيها بنقل حديث المحبين، وفي وصف ـ الغدران وخرير الماء، يقول طه من فصل يحدثنا فيه عن مشاهداته في جبال الفوج الفرنسية:

«ولست أنسى يوماً خرجنا فيه إلى مجتمع من الماء فأقمنا عليه حيناً، ثم

(١) رحلة الربيع والصيف، ص ١١٥.
(٢) نفسه ص ١٥٠.

مضينا نتبع الغدير في غابة كثيفة لا تستوي فيها الطريق ولا تعتدل، ولا تخترقها أشعة الشمس إلا على مشقة وجهد، قد فرشت أرضها ببساط كثيف من العشب فأخذنا نتبع شاطىء الغدير في دعة وهدوء. وكنت منصرفاً عمّن كان معي وعما كان من حولي إلى هذا الغدير أسمع خريره، وأبتهج به، وما هي إلا دقائق حتى أنسيت كل شيء غيره، وحتى اقتنعت بأني لا أسمع خرير الماء وإنما أسمع نجوى المحبين. لا أقصد إلى خيال ولا إلى شعر، وإنما أذكر ما أحسست وما وجدت كما أحسسته وكما وجدته. نعم كنت مقتنعاً بأني أسمع في هذا الماء المنحدر حديث المحبين، وكان هذا الحديث مختلفاً باختلاف انحدار الماء قوة وضعفاً: هنا ينحدر الماء في قوة وينزلق على جماعة من الصخور قائمة، فتسمع لانحداره أصواتاً مختلفة مرتفعة في اعتدال. وما هي إلا أن تمثل الحبيبين في ثورة ولوعة واضطراب وعتب وخصام. ثم تمضي فإذا مجرى الغدير قد لان واعتدل، وإذا الماء يمشي عليه هيناً ليناً، وإذا خريره هادىء رفيق، وإذا أنت تتمثل هؤلاء المحبين وقد هدأت ثورتهم، وبردت لوعتهم، وانصرفوا عن الخصومة والعتاب إلى هذا النحو من الرضا المضطرب بين السخط والعفو، والذي تدنو فيه النفس من النفس دون أن تجرؤ النفس على أن تتصل بالنفس، والذي تسمع فيه ألفاظ تمازج حلاوتها المرارة وتتخلل لينها الشدة...»[1].

(١) رحلة الربيع والصيف ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

طه حسين، أديباً وصفياً

قلنا إن الأدب، باعتبار موضوعه، على ضربين اثنين هما: الأدب الإنشائي، والأدب الوصفي. فإذا كان موضوع الأول توحي به الذات أو الطبيعة، فالثاني يتخذ من الأول موضوعاً له، درساً وتحليلاً وتقويماً، وذلك انطلاقاً من عوامل وأسس مختلفة أهمها الجنس والبيئة، والتاريخ، والثقافة. ولئن كان الأول، أي الأدب الإنشائي سابقاً إلى الظهور، فإن الثاني، وهو الوصفي، متأخر عنه، وبدوره هو على ضربين اثنين هما: تاريخ الأدب، والنقد الأدبي.

والآن، وقد تكلمنا على الأدب الإنشائي عند طه حسين، ماذا عن الأدب الوصفي عنده، وتحديداً ماذا، أولاً، عن طه حسين المؤرخ للأدب؟

مبحث أول: في التاريخ الأدبي

بادىء ذي بدء نقول إن من المتعذر علينا تتبع جميع ما ذهب إليه طه حسين في هذا المجال، إذ أن ذلك يحتاج إلى دراسة مفصّلة مستقلة، لكن لنا، في ما كتب عن الأدب الجاهلي، الشعر خاصةً، وما عرض له من تطور الأدب في العصر الحديث، وحول مفهومه للأدب، لجهة الحديث عن الشعر والنثر، وأيهما كان أسبق إلى الوجود، ومن الحديث عن صلة النثر بالحياة العقلية، والحديث عن بواعث الأدب، ورسالته، وفي معرفة كونه وسيلة أو غاية، صورة أو مادة. . . لنا في هذه الكتابات مجتمعة ما يلقي الضوء على أن طه حسين كان فعلاً، مؤرخاً للأدب، ومن الطراز الأول، ونبدأ الحديث بمفهومه للشعر والنثر، وللأدب عامة.

أولاً: مفاهيم أدبية عامة

أ ـ في الشعر والنثر:

من أهم الموضوعات الأدبية التي عني بها مؤرخو الآداب، موضوع الشعر والنثر، وأيهما كان أسبق إلى الوجود، وقد اختلف مؤرخو الأدب في هذا اختلافاً

بيناً، إذ رأى بعضهم أن النثر أسبق لأنه أسهل تناولاً، ولأن الناس في خطابهم اليومي إنما يتبادلون الكلام بالنثر، لا بالشعر، هذا فضلاً عن تحرر النثر من قيود الوزن والقافية، فهو أيسر منالاً، وأسهل تناولاً، ويعللون السبب الذي من أجله كان الشعر فيه أوفر حظاً، وأكثر رواية، وهذا بخلاف ندرة النصوص النثرية، يعللون هذا بسهولة حفظ الشعر، وصعوبة حفظ النثر، لذا فإن الذي وصلنا من الشعر كان أكثر مما وصلنا من النثر. هذا ما يقوله بعض مؤرخي الأدب، لكن بعضهم الآخر، وفي طليعتهم طه حسين، يذهبون مذهباً مخالفاً لهذا الرأي، ويعارضونه أيما معارضة، مبينين أن الشعر كان أسبق إلى الظهور من النثر، وذلك لأن النثر أصعب من الشعر، ومرّد ذلك يعود إلى أن النثر هو لغة العقل، أما الشعر فهو لغة الخيال، والخيال أسبق من العقل إلى الوجود، وهذا هو حال الطفل الذي يتخيل ثم يعقل، وحال الأمة، أية أمة، في بداية تحضرها من قبل أن تعقل وتتفلسف. ويعلل طه حسين رأيه هذا، بالحجة والمنطق والشاهد والدليل، فيبين أن السبب في قلة الرواية النثرية وندرة نصوص النثر عند العرب بإزاء كثرة الشعر، إنما يعود، لا إلى ندرة الكتابة، وإلى أن الحافظة لم تكن لتطاوع إلى حفظ النثر، ولا لأن نثر العرب في الجاهلية ضاع إلاّ أقله، وبقي الشعر إلاّ أقله، كما ذهب إليه نفر من القدامى، والمحدثين معاً، وإنما السبب في عدم، أو في قلة رواية النثر القديم إنما يعود إلى أن مثل هذا النثر لم يكن موجوداً، أصلاً، في أطوار حياة العرب الأدبية الأولى، وما رواية الكثير من الشعر القديم إلا لأنه كان للعرب فعلاً شعر، في هذه الأطوار المتقدمة[١].

ويبين طه حسين أن جميع الأمم تقريباً سبق شعرها فيها النثر، وما اهتدت إلى النثر إلا بعد مخاض حضاري طويل، وتقدم عقلي راقٍ، ومثال هذا ما نجده لدى اليونان والرومان، وكثير من الأمم والشعوب الأوروبية الحديثة. وما كان العرب بدعاً من هذا في تاريخهم القديم[٢].

وحول غلبة العقل على النثر، والخيال على الشعر، يبين طه حسين أن الخيال، وهذا بخلاف العقل، هو أسبق إلى النمو سواء أكان هذا في حياة الأفراد، أم في حياة الجماعات، خذ خيال الصبي على سبيل المثال، فإنه أقوى من خيال الشاب، وخيال هذا أقوى من خيال الكهل، لكن عقل الكهل أقوى من

---

(١) حسين، طه: حافظ وشوقي ص ٥٦. مكتبة غريب، القاهرة.

(٢) نفسه ص ٥٦.

عقل الشاب، وعقل هذا أقوى من عقل الطفل، وكذلك الشعوب والأمم من لدن بداية تحضرها حتى وصولها درك الحضارة المتقدم.

من هنا يؤكد طه حسين أن الشعر أسبق من النثر، لا، بل هو أسهل منه، أضف إلى ذلك أن العقل لا يتقدم إلا بصعوبة وفي بطء شديد وأناة، فإن كان خلاف ذلك، فهو طفرة العقل، وليس بالعقل الخالص، هو العقل، لكن يغلب عليه الخيال. إنه يصور الأشياء كما يشاء، لكنه يقبل صورها كما هي، إنه مقيد، لكن الخيال مطلق، حر من أي قيد، العقل بطيء والخيال سريع، فلا عجب أن يتأخر عن الخيال، ولا عجب تالياً أن يكون نتاج العقل أعسر وأقلّ، وتالياً فلا عجب أن يتأخر النثر الذي هو لغة العقل عن الشعر الذي هو لغة الخيال[١].

ب ـ صلة النثر بالحياة العقلية:

ومن الموضوعات التي أثارها طه حسين، وهو يؤرخ لظهور الشعر والنثر في الأدب، صلة النثر بالحياة العقلية العلمية خاصةً، فهو يؤكد على مبدأ التلازم بين النثر والحياة، إنه يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها. ودليل ذلك أن النثر عند اليونان بلغ أوج مجده في العصر الذي كان فيه سقراط وأفلاطون، وأن النثر في الغرب بلغ القمة في عصر تقدم الصناعة، وتطور العلوم، وأن العرب أيضاً، عرفوا النثر الراقي جداً في عصر قوتهم السياسية في مطلع العصر العباسي، زمن ابن المقفع والجاحظ وغيرهما من كبار الكتاب في الأدب العربي، وهذا هو حال النثر أيضاً في مصر، وفي غير مصر، إنه لا يرقى إلا برقي الحياة العقلية والعلمية، وهذا أكبر دليل على أن الشعر أسبق إلى الظهور من النثر[٢]. ويختم طه حسين خلاصة ما ذهب إليه بهذا الشأن بالقول: «إن الذين يريدون ألاّ يؤخروا الآداب العربية في هذا العصر الحديث خليقون ألاّ يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألاّ يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل اسقلالاً تاماً عن الحياة العلمية، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليس هناك حياة أدبية وحياة علمية، وإنما هناك حياة عقلية تظهر مرة في شكل أدبي، وهو النثر الفني، وتظهر مرة أخرى في شكل علمي هو النثر الذي نجده في كتب العلم الخالص»[٣].

ج ـ بواعث الأدب ورسالته:

من وجهة نظر قديمة، يرى طه حسين أن الأديب أو الشاعر، إنما يصدر في

---

(١) حافظ وشوقي ص ٥٧. (٢) نفسه ص ٥٧. (٣) حافظ وشوقي ص ٥٨.

أدبه وشعره إما عن طبيعة أودعها الله في قلبه، تقتضي مثل هذا الشعر أو الأدب؛ وإما عن تأثير للبيئة التي يعيش فيها، وإما عن استجابة لظاهرة اجتماعية شائعة مفادها أن ينتج الأدباء، ويسمع لهم الناس أو يقرأون[١].

والدليل على ذلك أنه ما من بيئة، بدوية أو متحضرة، إلا ولها لون من الأدب يتلاءم وطبيعة أدبائها، ويلائم بين هذا الأدب ومستمعيه، ومن هذا القبيل الشعر الجاهلي الذي كان يقوله الشاعر، فيشيع من حوله في سائر القبائل.

ولما تغير العصر، وتحضرت الأمم، تغير أدبها وتطور دون التنكر للقديم[٢]. وفي جميع الأحوال ظل الأدب تعبيراً عن حياة الأمم وحياة الأدباء وحياة النفوس والأذواق والقلوب إن كل أدب من الآداب إنما هو، وبحسب تعبير طه حسين «يصور نوعاً من أنواع حياتها، ولوناً من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في نفوسها»[٣] إن الأديب، وفي كل عصر من العصور إنما هو ينشىء أدبه لبيئته التي يعيش فيها، لا لفرد من الناس، ولا لجماعة محدودة منهم... هكذا فعل زهير في الجاهلية، ومثله امرؤ القيس والنابغة والأعشى، وهكذا فعل الأخطل وجرير والفرزدق في العصر الإسلامي... إنهم كانوا يقولون الشعر لكل الذين كانوا يستطيعون أن يفهموه ويذوقوه، ومن المؤكد أن بيئاتهم كلها كانت تستطيع الفهم والذوق[٤].

صحيح أن زهيراً مدح هرم بن سنان، أو غيره من الممدوحين، وصحيح أنه طمع في ماله وأعطياته، كما يطمع فيها الشعراء الآخرون، لكن من المؤكد أن زهيراً، وغيره من الشعراء، كانوا يطمحون إلى أبعد من المال، إنهم يطمحون إلى الشهرة، وهذه ميزة أو قل غريزة إنسانية. وكذلك فإن ممدوحي زهير، وغير زهير كانوا يبذلون المال، لا لشيء إلا لأنهم في أمس الحاجة إلى مثل هذه الشهرة، وإلى أن تردد الألسنة ما قاله فيهم الشعراء من ثناء وتقريظ.

وبصرف النظر عن صدق الشاعر أو كذبه، فإن الذي يعنينا هو هذا الشعر الجميل الصادق في «تصوير المثل الأعلى فيما ينشىء من مدح وثناء، لأن المادحين والممدوحين يذهبون وتبلى أشخاصهم ولكن المثل العليا التي يصدقون في تصويرها تبقى للناس ما بقي الناس»[٥].

---

(١) خصام ونقد ص ٤٢.
(٢) نفسه ص ٤٣.
(٣) خصام ونقد ص ٤٥.
(٤) نفسه ص ٤٧.
(٥) خصام ونقد ص ٥١.

وهنا يشير طه حسين إلى نقطة مهمة في فهم الأدب، هي تلك المتعلقة ببعض النقاد الذين يزرون على أدبنا العربي القديم، اهتمامه بحياة الملوك والخلفاء، وشيوع المدح فيه شيوعاً منقطع النظير. يرد طه حسين على هؤلاء مبيناً أن الفن الخالد يبقى، والأدب الحيّ أخلد من الملوك والأمراء والخلفاء، وإلاّ فما كان أحرانا أن نلغي شكسبير الذي فيه مدح للملوك والأشراف، وأن نلغي أيضاً التراث المصري القديم كله على اختلافه فناً كان أو أدباً، بحجة «أنه أنشىء للملوك، أو أنشىء في ظل الملوك»[1].

والذي يريد أن يخلص إليه طه حسين، هو أن للأدب رسالة، هي رسالة الفن التي تتأثر بالبيئة تبعاً لاختلاف العصور، كان المدح للملوك والخلفاء والأمراء، يوم كان الملوك والخلفاء والأمراء، وذلك انسجاماً مع روح العصر والبيئة التي نشأ فيها الأدب والشعر. ولكن اليوم، وبحسب تعبير طه حسين «فمن غير المظنون أن أديباً من الأدباء المعاصرين يخطر له أن يمدح الآن ملكاً أو يثني على إقطاع»[2].

صحيح أن الأدب، وبصرف النظر عن الخوض في القديم والحديث، هو الذي خلق للحياة، و «عاش للحياة دائماً»، ولاءم البيئات التي كان ينشأ فيها على اختلاف العصور والظروف، ولن يكون الأدب الجديد عندنا بدعاً من آداب الدنيا كلها؛ صحيح هذا، لكن الأدب، أولاً، وكما يراه طه حسين، لن يكون وسيلة، أبداً، وإنما هو غاية في نفسه، والأديب الأديب، هو الذي يكتب لأنه لا يستطيع إلاّ أن يكتب[3].

إن من أخطر ما يشاع اليوم، فهم الأدب أنه وسيلة من وسائل الإصلاح، وسبيل من سبل التغيير في حياة الشعوب، فحسب. قد يكون الأدب هكذا في حال صدوره عن صاحبه صدوراً طبيعياً تماماً كصدور الضوء عن الشمس، أو العبير عن الزهر. . . إن ضوء الشمس، يقول طه حسين «لا يصدر عنها لتحقيق الأغراض وبلوغ الغايات التي تحققها أنت وتبلغها به، وإنما يصدر عنها بطبيعته، وتنتفع أنت به وتسمتع به أيضاً، وتحقق به أغراضك، وتبلغ به غاياتك، وتوجهه مع هذا كله إلى ما تريد، وإلى ما تستطيع لأنك تجده يغمرك ويتاح لك، ويهديك ويتيح لك ما تجد فيه من النفع. .»[4].

---

(١) نفسه ص ٥٢.

(٢) خصام ونقد ص ٥٥.

(٣) نفسه ص ٥٨.

(٤) خصام ونقد ص ٥٨.

وصحيح أيضاً أن الأدب في حد ذاته، قد يحقق للناس كثيراً من منافعهم، ويرضي كثيراً من حاجاتهم، ويلائم دائماً حياة الناس لأنه صورتها التي تشتق منها وتعود إليها، ولكن هذا لا يعني أبداً أن نطلب إلى الأدب أن يحقق كل هذا في إلحاح مزعج ومريب، إنه يحققها عفواً، لا عن قصد وتعمد.. إن الأدب، يقول طه حسين «لا يكره شيئاً كما يكره أن يكون وسيلة، والأدباء لا يكرهون شيئاً كما يكرهون أن يكونوا أدوات تستغل وتستذل، وتبتغى بها المنافع والحاجات»[1] وقد يقول قائل إن الشعراء والكتاب في العصور القديمة كانوا يتخذون الشعر أو الأدب وسيلة إلى السادة من الممدوحين، وليس هذا صحيحاً أبداً، إن الشعراء والأدباء اتخذوا السادة وسيلة إلى الإنتاج والإبداع الذي وجدوا فيه، ونجد فيه نحن اليوم «غذاء القلوب والأذواق والعقول»[2].

هكذا فهم الأدب طه حسين، فهمه صدوراً طبيعياً عن نفس صاحبه، وذوقه وإحساسه وطبعه.. ولا يعني هذا أن ينأى الأدب عن الحياة والواقع، ولا أن يبقى جامداً، أو أن يكون صدى للماضي ليس غير، وإنما يعني أن يتطور الأدب مع الحياة، ويصورها في حاضر الأمر ومستقبله كما صورها في ماضيه.. الأدب، في مفهوم طه حسين، فوق الشبهات، وفوق التسيير والتسخير، بحجة ملاءمة العصر ومواكبة الحركات الثورية والإصلاحية والتحررية.. الأدب في مفهومه ليس أرضاً ولا مالاً، ولا مادة، وإنما هو «روح، والروح يرى وينظر ويلح في الرؤيا والنظر، ثم يسيغ، ثم يتمثل، ثم يخرج بعد ذلك في مهل ما أساغ وما تمثل»[3].

د ـ الأدب وسيلة أو غاية:

وفي غمرة الخوض في موضوع الأدب وغايته. وخصوصاً من وحي القائلين إن الأدب يجب أن يكون اجتماعي المنحى، لا فردياً، وأنه يجب أن يكون في سبيل الحياة، يتساءل طه حسين عن معنى الحياة التي يريد هؤلاء أن يجعلوا الأدب وسيلة إليها. يتساءل فيقول: أهي حياة الأجسام أم حياة العقول والقلوب؟.. أهي حياة الأفراد أم حياة الشعوب؟.. ويجيب طه حسين عن هذا كله بقوله إن الأدب اجتماعي بطبعه كالإنسان الذي وصفه أرسطو بهذا الوصف منذ قرون. حتى الأدب القديم الذي كان موضع تهمة نقاد اليوم، وشبهة، بحجة أن بعض فنونه توجهت إلى الملوك والأغنياء، حتى هذا الأدب إنما هو أدب

---

(١) نفسه ص ٦٢. (٢) خصام ونقد ص ٦٣. (٣) نفسه ص ٦٦.

اجتماعي، وكثير منه أدب إنساني، وإلا لماذا بقي هذا الأدب حتى اليوم، ولم يمت مع قائليه ومع الذين وجه إليهم من الأقوياء والأغنياء؟[١] الأدب اجتماعي بطبعه، لأنه موجه بطبعه في سبيل الحياة، حياة العقول والقلوب، لا حياة الأجسام، ثم إنه، وبحسب تعبير طه حسين «فليس لأحد أن يكلف الأديب أن يوجه أدبه هذه الوجهة أو تلك. . وإنما الأديب حر أن يكتب ما يشاء ويكتب كيف يشاء. والقرّاء أحرار يقرأون إن شاءوا ويعرضون إن أثار فيهم الأدب رضى»[٢].

ومن وحي الخلاف القائم والدائم أبداً، بين الذين يريدون الأدب وسيلة لإرضاء الحاجات وبلوغ المآرب، والذين يريدونه تعبيراً عن لغة الذوق والإحساس والقلب والعقل، أو قل من وحي الجدل الشائع بين أنصار الالتزام في الأدب كوسيلة للتغيير والإصلاح وملائمة حاجات العصر السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية، وبين أنصار الحرية في الأدب، وعدم التزامه بقيد من القيود، فإن طه حسين ليربأ بمنطق القائلين إن الأدب وسيلة لإرضاء الحاجات المادية للناس في حياتهم التي يحيون. وبادىء ذي بدء فإنه يريد للأدب، وبصرف النظر عن كونه وسيلة أو غاية، أن يكون ذا مادة أدبية قيمة تستحق النشر والكتابة والاهتمام، ويريد للأديب أن يتمهل في أدبه، ويعمل فيه ذوقه ورأيه وفكره وأناته يريد للأدب أن يكون جميلاً، بكل ما في الجمال من معنى[٣].

والجمال الذي يشترط توافره في الأدب، وإن اختلفت الآراء فيه، وتباينت، ما بين جمال الشكل أو المعنى، تبعاً لاختلاف الثقافة وتباين الذوق والعصر، هو، أي الجمال، ذاك الإكسير الذي يمتع الروح، ويغذي القلب والعقل؛ ولا يهمنا كثيراً في الأدب أين يكمن سر الجمال، أهو في اللفظ، أم المعنى، أو في النظم أم الأسلوب، أو في كليهما معاً، المهم أنه الجمال الأدبي فحسب، مزيج من هذه الأشياء كلها، من ائتلاف الموسيقى، وانسجام اللفظ والمعنى والأسلوب، والصورة والإحساس والعاطفة والشعور. المهم أن الكلام لا يكون أدباً حتى يوجد فيه هذا الجمال، وليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون. . ليكن موضوعه جميلاً أو قبيحاً، أو محبباً أو بغيضاً، فليس يعنيني منه، يقول طه حسين «إلا أن يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني في هذا الشعور الرفيع بالجمال»[٤].

---

(١) خصام ونقد ص ١١٦.

(٢) نفسه ص ١٢٥.

(٣) خصام ونقد، ص ٨٠.

(٤) نفسه ص ٨٦.

إن من فادح الظلم أن نقيد الأدب بقيود الدلالة الاجتماعية، فيكون تعبيراً عن أحداث ومواقف ووقائع اجتماعية، ليس إلاّ، لو كان الأدب هكذا لبطل كل الشعر أو الأدب الذي يصف فيه صاحبه الطبيعة والأرض والسماء والنجوم، ولبطل أيضاً كل الشعر أو الأدب الحافل بالنجوى والمناجاة والأحاسيس والمشاعر والعواطف، بحجة أنه لا يتضمن مواضيع ومواقف اجتماعية. كذلك وقياساً على هذا ننزع من أدبنا القديم والحديث كل شعر أو أدب لم يتحدث فيه صاحبه عن البؤس والجوع وغير ذلك، بحجة أنه لم يحقق غاية اجتماعية. ومثل هذا الرأي يلغي شعر «إليوت» الإنجليزي وذلك لأنه عبر فيه عن مواقفه الروحية وتأملاته العقلية، بحجة خلوه من المواقف الاجتماعية[١]. ولا يعني هذا أبداً أن الأدب، في نظر طه حسين، محظور عليه معالجة القضايا الاجتماعية، كلا، المهم في نظر طه حسين، وكما عبر عن هذا في أكثر من بحث هو أن كل أدب يروع بجماله ويروق ويشوق ويمتع، فهو الأدب حقاً، سواء أكان أدباً اجتماعياً أم غير اجتماعي، مادياً أم روحياً، المهم أن يؤدي الأدب دوره وغايته المتمثلة بالقدرة على إثارة المتعة، والإحساس بالجمال سواء أصوّر المادة أم صوّر الروح[٢].

هـ ـ الأدب صورة أو مادة:

وقريب من مسألة كون الشعر أو الأدب وسيلة أو غاية، مسألة ثانية ملازمة للأولى هي صورة الأدب ومادته. إن من الصعب جداً، في نظر طه حسين أن تفصل بين صورة الأدب ومادته، لأنه يكاد يعصى على الفصل والتحليل..

إن هذا الفصل أمر مألوف في المسائل العلمية كالطبيعة أو الكيمياء، لكنه في الأدب من الصعوبة بمكان، حتى الرأي القائل أن اللغة هي صورة الأدب، وأن المعاني هي مادته، إنما هو رأي يعبر عن كلام مقارب لا تحقيق فيه[٣]. المحقق في رأي طه حسين، أن الألفاظ والمعاني ممتزجة امتزاجاً عجيباً يصعب فيه الفصل والافتراق إذ من غير المعقول تبادل المعنى المجرد دونما دليل عليه هو اللفظ أو الصورة أو الرمز. ومن غير المعقول أيضاً تبادل اللفظ المجرد من الدلالة على المعنى[٤]. إذن إن صورة الأدب ومادته شيئان متلازمان، وعنصران ممتزجان، وقد يضاف إليهما عنصر ثالث هو عنصر الجمال، إذ بدون هذا العنصر

---

(١) خصام ونقد ص ٩٩.

(٢) نفسه ص ١٠١.

(٣) خصام ونقد ص ٨٧.

(٤) نفسه ص ٨٨.

الثالث يخرج الأدب عن كونه أدباً، ويصير الكلام شائعاً مألوفاً هو كلام الناس عامة، أو كلام أي فن من فنون المعرفة والعلم باستثناء الأدب، نخلص من هذا أن الجمال هو الذي يميز الأدب من غير الأدب، وإذا خلا الكلام منه فلا أدب إطلاقاً[1].

و ـ بين القديم والحديث:

في مستهل الجزء الأول من «حديث الأربعاء» يبين طه حسين أن الأدب القديم أساس الحديث، فلا «حديث» من دون «قديم»، ولا أدب معاصراً لولا الأدب القديم، وإنما تتمثل قيمة هذا الأدب بمعرفة تذوقه وإحيائه، والعبرة كل العبرة تكمن في النص الأدبي نفسه، فإما أن يكون جيداً، وإما أن يكون رديئاً. وفي الجزء الثاني من كتابه القيم «حديث الأربعاء» يعود طه حسين إلى متابعة الحديث عن القديم والجديد، أو ما يعرف بالصراع بين الأدباء القدامى، والأدباء المحدثين، فيبين لسائله أن الصراع بين القديم والحديث إنما هو صراع قديم جداً، وليس هو ابن العصر، وهو ليس وقفاً على الصراع الأدبي بل هو يتمثل أيضاً بصراع الفكر القديم والفكر الحديث، والزي القديم والزي الحديث، والعيش القديم والمسكن القديم وبين العيش الحديث، والمسكن الحديث.. وباختصار إن الصراع سنة الحياة، كان هذا قديماً، وهو اليوم ماثل أمام أعيننا، وسيظل هذا الصراع ما كان إنسان، وما استمرت حياة. أضف إلى ذلك، يبين طه حسين لسائله، أن الصراع بين القديم والحديث، والذي يشمل فروع الحياة المختلفة، ومنها الأدب، أو الحياة الأدبية، لم يكن عند العرب فحسب، بل عرفته الآداب العالمية القديمة كلها، وخصوصاً الأدب اليوناني، وقد ظهر أثره واضحاً في العديد من الكتابات اليونانية الأدبية، وما الحديث عن إلياذة هوميروس، والشك في صحة أشعارها، وأحداثها، والخلاف الذي وقع بين اليونان أدباء ونقاداً وشعراء لاحقاً، حول مضمون الإلياذة، ولغتها الشعرية، ونفور الجيل الناشىء من المتأدبين اليونان لاحقاً من الكثير الكثير مما ورد في الإلياذة وغير الإلياذة من الشعر اليوناني القديم، إلاّ شاهد على مثل هذا الصراع القديم المتجدد دوماً ما دام هناك أدب وشعر ونقد، لا بل إن مظهر الصراع في الأدب العربي بين القديم والحديث، لا يعد شيئاً يذكر بإزاء الصراع الذي شهدته اليونان،

(١) خصام ونقد ص ٨٩.

وشهده الرومان، وكان مثار نزاع وخلاف بين الأدباء، فكان ثمة من يثور على التراث بحجة عدم ملاءمته روح العصر، وكان ثمة من يدافع عن التراث بحجة المحافظة على الاصالة، والهوية والتمسك بالتقاليد[1].

ويبين طه حسين لسائله، أن ما يطرح اليوم أو يثار عن القديم والحديث في الشعر ليس بدعاً من القول أو الكلام، بل هو قديم قدم الشعر العربي نفسه، وبالدليل الساطع والمثل الحي، والشاهد الناطق أيضاً، يستشهد بظاهرة الغزل التي عرفها العصر الأموي، تلك الظاهرة التي تمثلت بظهور نوعين من الغزل، هما العذري والإباحي، وتخصص العديد من الشعراء بهذا الفن الشعري وحده، أو ذاك، دون التطرق إلى الأغراض الشعرية الأخرى، إلا نادراً، فيؤكد طه حسين أن مثل هذا التخصص الشعري، والتوفر عليه إنما هو ظاهرة تجديدية، وربما كانت أول حركة شعرية حملت بوضوح معالم الثورة على القديم؛ صحيح أن الغزل كان فناً رائجاً في أوساط الشعراء الجاهليين والإسلاميين، لكنه كان يندرج ضمن القصيدة الواحدة مع غيره من الأغراض، كأن يكون مثلاً توطئة للمدح، أو الشكوى أو العتاب، أو الفخر، أو الوصف، وغير ذلك.

وإذا ما جاء مستقلاً، وقد يجيء مستقلاً، فإنما كان بإزائه العديد من الأغراض الشعرية. وما يريد طه حسين أن يوضحه، هو أن العصر الأموي شهد ولادة أول ثورة، أو حركة تجديدية في الشعر العربي، تمثلت كما قلنا، باستقلالية القصيدة الغزلية، سواء أكانت من الغزل العذري العفيف، أم من الغزل المادي الحضري غير العفيف. كما شهد العصر نفسه ولادة أول حركة شعرية تجديدية تمثلت بتوفر عدد من الشعراء، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة، على شعر الغزل، والغزل وحده، دون التطرق إلى سائر الأغراض الشعرية التي كانت متداولة عند العديد من شعراء ذلك العصر[2].

وفي العصر العباسي كذلك، استمر الصراع بين أنصار القديم وأنصار الحديث، ما ساعد على تطوير الشعر العباسي، وإغنائه بالمعطيات الفكرية والسياسية والفنية والعلمية الجديدة، وكان لهذا التطور أسبابه التي توسع في الحديث عنها طه حسين، وردّها إلى أسباب عامة وخاصة، لعب فيها اختلاط

(١) حسين، طه: حديث الأربعاء ٢/٣ ـ ١٣. دار المعارف بمصر ١٩٧٦.
(٢) حديث الأربعاء ٢/١٤ ـ ١٩.

الأجناس الأعجمية بالعربية، وتباين الأفكار، وترجمة الكتب اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية، وتعدد الثقافات، وغنى البيئة، واختلاف الطبيعة والمناظر، ونمط السكن، واستقرار الحضارة، وغناها العقلي، وسياسة الخلفاء، وقيام الدويلات، وبروز الشعوبية، وغير ذلك كثير، ما كان له بالغ التأثير في الشعر والأدب، ما أفسح المجال بالظهور للحركات التجديدية، وللثورة على القديم في الشكل والأسلوب واللغة، والمضمون. ويعطي طه حسين نموذجاً لهذا الصراع بين القديم والجديد، تمثل بثورة أبي نواس، وأضرابه من أنصار الجديد، كمسلم بن الوليد، ووالبة بن الحباب، ومطيع بن إياس، وغيرهم كثيرون، تمثل بثورة هؤلاء على الأساليب المتبعة في القصيدة العربية الكلاسيكية، فكان ثمة تجديد في اللفظ، وآخر في الشكل، وثالث في الأسلوب، ورابع في نمط التفكير، وفي المضمون، ومن أدلّ الأمثلة خروج أبي نواس على المنهجية القديمة التي كانت لا تزال مقدسة في زمانه، عنيت استهلال القصيدة بالطلل أو الغزل، وقصيدته الخمرية التي بدأها بالقول:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الداء

قصيدته هذه نموذج للشعر الجديد وللثورة على القديم، إذ أن الشاعر انصرف كلياً إلى الخمرة، واصفاً، ومتأملاً، ومتفلسفاً، ولم يتطرق فيها لأي غرض شعري آخر، ولم يستهلها بالوقوف على الطلل، لا، بل إن شعره، وفي معظمه، يكاد يخلو من الأغراض الشعرية المألوفة، ويكاد أن يكون وقفاً على الخمرة، والخمرة وحدها، أضف إلى ذلك تجديده في المضمون، إذ أن شعر النواسي امتاز بالجدة، وبالغنى العقلي، وبإدخال الفلسفة، والعلوم العقلية والكلامية، إلى المعنى الشعري العام، وهذا في حد ذاته، إغناء للقديم، إن لم يكن ثورة عليه[١].

وخلاصة القول، في هذا الموضوع، وكما جاء في فصول الجزء الثاني من «حديث الأربعاء»، ينتهي طه حسين إلى القول إن الأمم والشعوب كلها شهدت مثل هذا الصراع بين القديم والجديد، كان هذا عند العرب، وكان في اليونان والرمان، وهو كذلك في الآداب الغربية، والفرنسية خاصة، وهنا يستشهد طه حسين برسالة ساخرة للأديب الفرنسي الذائع الصيت «مونتسكيو» يشير فيها إلى

---

(١) حديث الأربعاء ٢/٢٦ ـ ٥٧.

صراع القدامى والمحدثين، وإلى الخصام الذي جرى بين من يفضل الشعراء الذي عاشوا قبل مائتي سنة، وبين الذين يفضلون من عاشوا بعد المائتين، كما ينهي فصله بلفت نظر الرافعي إلى أنه ليس ثمة خطر على القديم من أنصار دعاة الحديث[1].

ثانياً: في الأدب الجاهلي

أ ـ الانتحال:

من أمتع الأبحاث التاريخية للأدب، وأخصبها وأغناها بالفكر والنظر والرأي والملاحظة، تأريخ طه حسين للأدب الجاهلي العربي، في كتابه القيم الذي حمل عنواناً له «في الأدب الجاهلي» إذ يجد القارىء فائدة لا تعد لها فائدة، ومتعة لا يضاهيها متعة، وهو يتابع فصول هذا الكتاب القيم الذي نشر لأول مرة سنة ١٩٢٦، بعنوان «في الشعر الجاهلي»، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت عنوان «في الأدب الجاهلي» وذلك بعد أن حذف منه فصلاً أثار جدلاً في الأوساط العلمية والأدبية والدينية، وكان موضع استنكار واحتجاج، ليس هنا مجال بحثه.

في هذا الكتاب القيم الذي كان فيه طه حسين رائداً من رواد كتابة التاريخ الأدبي، وبعد أن يعرض في الكتاب الأول منه، للأدب وتاريخه، متحدثاً عن سبل الإصلاح في دروس الأدب، ومنها معرفة تحبيب قراءة النصوص الأدبية إلى الطلاب، وضرورة إتقان اللغات السامية وآدابها، واليونانية واللاتينية، وعدد من اللغات الأوروبية وآدابها ومناهجها العلمية الحديثة.. وبعد أن يتحدث عن الثقافة ودرس الأدب، ودور هذه الثقافة في اعتبارها أساساً لكل بحث أدبي منتج.. وبعد أن يشرح لفظة «أدب» من الناحية اللغوية، والاصطلاحية، ويعرفنا بدلالة الأدب وما أكثر دلالاتها.. وبعد أن يتحدث عن الصلة بين الأدب وتاريخه، ونوعي الأدب الإنشائي والوصفي، ومقاييس التاريخ الأدبي، ومنها المقياس السياسي، والمقياس العلمي، والمقياس الأدبي البحت.. وبعد أن يفيض في الحديث عن تاريخ الآداب العربية، وعن الحرية والأدب، ودرسه كعلم يدرس لنفسه، ويقصد به كل شيء تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام[2]... بعد هذا كله ينتقل طه حسين إلى كتابه الثاني وهو بعنوان «الجاهليون: لغتهم وأدبهم» فيحدثنا عن ظاهرة ما يعرف بانتحال الشعر الجاهلي، ومفادها أن معظم الشعر

---

(١) نفسه ٢/٢٥٧.

(٢) حسين، طه: في الأدب الجاهلي، ص ١٣ ـ ٥٩. ط ١. دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

الجاهلي، خاصة، والأدب عامة، إنما هو منحول بعد ظهور الإسلام، نحله الرواة، والنحاة، والقصاص، والمفسرون والمحدثون والمتكلمون[1] . . كما يحدثنا عن منهجه في البحث فإذا هو منهج ديكارت العلمي الفلسفي القائم على التجرد والموضوعية[2] . . ثم يحدثنا عن الحياة الجاهلية، ناصحاً من أراد أن يطلع عليها أن يلتمسها في القرآن، لا في الأدب الجاهلي . .

وبعد أن يتحدث عن الأدب الجاهلي واللغة التي كتب بها، وعن الشعر الجاهلي واللهجات العربية، ينتقل طه حسين إلى الكتاب الثالث فيخصه بالحديث عن أسباب نحل الشعر التي يمكن إيجازها بأنها أسباب سياسية، ودينية، وقصصية، وشعوبية، وروائية[3] . . .

بعد هذا كله ينتقل إلى الكتب التالية، وهي الرابع والخامس والسادس والسابع، وهي من أهم الكتب التي اشتمل عليها كتاب «في الأدب الجاهلي» لأن فيها تأريخاً للأدب، وللشعر والشعراء، ولفنون الأدب المختلفة التي شهدها العصر الجاهلي، ما يعتبر قمّة في رصانة البحث، وجدّة الموضوع، وطرافة الأسلوب، ومتعة التحليل، ونباهة العرض والاستيفاء.

ب ـ الشعر والشعراء:

في كتابه الرابع المعنون له «الشعر والشعراء» يؤرخ طه حسين، الأديب، للشعر الجاهلي، وكيفية وصوله إلينا، فيقول إنه لم يصل إلينا عن طرق صحيحة، بل وصل إلينا، ومعه الكثير من أخبار الجاهليين، عن طريق الرواية، والحديث، ما جعل الصحيح يختلط، بغير الصحيح، وهذا هو حال أي أدب من آداب الأمم والشعوب الأخرى، وما أفسح المجال واسعاً لبروز ما يعرف بالأدب المصنوع أو المنحول، لكن الناس، هم الناس، ميالون بطبعهم إلى تقديس القديم، والغلوّ في أعمالهم وأوصافهم، من هنا وجوب إخضاع العديد من الآثار الأدبية الجاهلية لعامل العقل والبحث والنقد، على ضوء تطور العقل، ومذاهب النقد، ومناهج البحث المتطورة الحديثة[4] .

وفي بحث مستقل مستفيض عما زعم من شعر اليمن، أو شعر الجنوب، أو شعر القحطانيين، يميل طه حسين إلى نفي هذا الزعم، شاكاً في صحته إن وجد،

---

(1) نفسه، من ص ٦١ ـ ٦٧.
(2) في الأدب الجاهلي من ص ٦٨ ـ ٧٠.
(3) نفسه من ص ١٣٢ ـ ١٧٣.
(4) في الأدب الجاهلي ص ١٧٤ ـ ١٨٠.

مبيناً أنه لم تصلنا شواهد تثبت صحة هذا الشعر أو الأدب اليمني، وأنه غير صحيح أن اليمنيين استخدموا لغة قريش، ولا صحة لما يقال عن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال، وتالياً فلا صحة للشعر المنسوب إلى أناس عاصروا إسماعيل بن إبراهيم، ومنهم مضاض بن عمرو الذي يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالي والحظوظ العواثر

ويعلل طه حسين السبب الذي من أجله ذهب إلى الشك في هذا الشعر وأمثاله، فيرد شكه إلى سهولة هذا الشعر، ووضوح لغته ولينها، والتزام الشاعر أصول النحو والصرف والعروض والقافية مما لم يكن موجوداً في ذلك العصر المتقدم جداً على العصر الجاهلي(١).

ومثلما شك في صحة شعر مضاض، شك أيضاً في صحة الشعر المنسوب إلى حسان تبّع، وهو:

أيها الناس إنّ رأيي يريني   وهو الرأي طوفة في البلاد
فإذا سرت سارت الناس خلفي   ومعي كالجبال في كلّ واد
سقّني ثم سقّ حمير قومي   كأس خمر أوهى النهى والعماد

شك في صحته، بحجة أنه شعر سخيف ركيك، وضعته العرب لاحقاً بدافع من السياسة والدين.. كما شك في صحة ما قيل عن غزو ملوك حمير للبيت الحرام، وعن إذعان العدنانية للقحطانية ثم الانقلاب على القحطانية، والانتصار عليهم بقيادة كليب في حرب البسوس(٢).

كذلك فإن الشعر الذي قيل في يوم الكلاب الثاني، وهو شعر ينسب إلى شعراء من اليمن يثنون فيه على مضر ويمدحونها إعجاباً بانتصار تميم على قبائل اليمن من حمير وكهلان، هذا الشعر يشك في صحته طه حسين، ويبين أن الذي وضعه لاحقاً هو بعض قصاص تميم، أو بعض من كان من أنصار العصبية التميمية، وإن من هذا الشعر المشكوك فيه شعراً لعبد يغوث منه قوله:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

---

(١) نفسه ص ١٨٢.

(٢) في الأدب الجاهلي، ص ١٨٢.

فيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا
وقد علمت عرسي مليكة أنني ... أنا الليث معدوّاً عليّ وعاديا
أمعشرتيم قد ملكتم فأسجحوا ... فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيّداً ... وإن تطلقوني تحربوني بماليا[1] . . .

ومثله شعر البراء بن قيس الكندي، وفيه يمدح تميماً، وشعر وعلة بن عبد الله الجرمي، وفيه ثناء أيضاً على تميم، وغمز من قناة اليمانية، وشعر معديكرب بن الحارث في رثاء أخيه شرحبيل، ومثله أيضاً معظم الشعر الذي قيل في يوم الكلاب الأول، والثاني، بين المضرية واليمنية. . وكذلك يشك في الشعر اليمني المنسوب إلى عدد كبير من شعرائهم الذين لم يثبت لهم إلا وضاح اليمن، وأعشى همدان. . . أما ما قيل عن حسان، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وسعيد بن عبد الرحمن، والأحوص، من أنهم يمانيون، فمن أين لنا، يقول طه حسين، «أن نثبت أنهم يمانيون، فهم عاشوا في الحجاز ونجد وغيرها. . إذن، نحن نرفض ما يضاف إلى اليمن من شعر، باستثناء امرىء القيس. . .»[2].

ج ـ امرؤ القيس:

وعلى ذكر امرىء القيس، فإن طه حسسين، وهو يؤرخ له مستعرضاً شيئاً من سيرة حياته، وشعره، ليشك في بعض نسبه، وبعض شعره، ودليله إلى ذلك اختلاف الأقوال في اسمه، وكنيته، ولقبه، واسم أبيه، وبناته، وهو، أي طه حسين يميل إلى الاعتقاد بأن القصاص والرواة والمدونين الذين دونوا تاريخ كندة التي ينسب إليها امرؤ القيس، هم الذين وضعوا تاريخ امرىء القيس، وتاريخ تنقله في القبائل، وقصة ذهابه إلى ملك الروم، وغدر هذا به، وهي تشبه قصة عبد الرحمن بن الأشعث الذي طوّف بالبلاد ولجأ إلى ملك الترك، ثم غدر به، فقتله. كذلك فإن شخصية امرىء القيسي تشبه شخصية هوميروس عند اليونان، فكما أن اليونان لا تعرف عن شاعرها العظيم إلا ما تناولته الرواية، وتناقلته الألسنة، كذلك فإن العرب لا تعرف عن شاعرها الكندي إلا ما تناقلته الألسنة، ووضعه الرواة، واخترعه القصاصون. من هنا يميل طه حسين إلى الاعتقاد بأن الشعر المتعلق بحياة امرىء القيس، وبأنه ابن ملك أراد الثأر لأبيه، إنما هو شعر منحول عليه، وضع لاحقاً من قبل جماعة القصاصين والرواة. كذلك هو شك في صحة الشعر

---

(١) نفسه ص ١٨٤.

(٢) في الأدب الجاهلي، ص ١٩٤.

المنسوب إليه، وفيح يمدح السموأل، معتبراً أن هذا الشعر قاله دارم بن عقال، من ولد السموأل، وهذا ما أكدته رواية صاحب الأغاني. كذلك هو يشك في الشعر الذي قاله في القسطنطينية، وفي ابنة قيصر لما عاد خائباً من بلاد الروم. . إذاً، ماذا بقي من شعر امرىء القيس الذي لم يشك فيه طه حسين؟ لقد بقي من شعره معلقته الشهيرة، وقصيدته التي يبدأها بالقول:

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي

وباقي شعره كله منحول عليه، أو هو على الأقل مشكوك فيه. حتى الشعر القصصي الذي جاء في تضاعيف معلقته، ويتحدث فيه عن بيضة الخدر، وعن دارة جلجل، حتى هذا الشعر يشك في صحته طه حسين بحجة أن الفرزدق قد يكون وضع قصة دارة جلجل، وأن ابن أبي ربيعة، عمر، قد يكون وراء بيضة الخدر، وذلك أن الفرزدق كان مرّ بنسوة، وهو على بغلة له، فقال: ما أشبه اليوم بدارة جلجل! ثم قصّ على النسوة قصة ذلك اليوم، وأن عمر بن أبي ربيعة ضمّن شعره الكثير من القصص الغرامي الذي يحاكي قصص امرىء القيس الغرامي[١].

د ـ شعراء آخرون:

ومن الشعراء الذين أرخ لهم طه حسين ونالهم ما نال امرأ القيس من تشكيك في بعض أشعارهم وأخبارهم، نذكر كلاً من عبيد بن الأبرص، وعمرو بن قميئة، ومهلهل، وجليلة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وطرفة، والمتلمس، والأعشى، وجلّهم من شعراء اليمن وربيعة:

أما عبيد بن الأبرص فإن طه حسين يشك في قوله:

والله ليس له شريك   علاّم ما أخفت القلوب

وقوله الآخر الذي يهجو فيه امرأ القيس وكندة:

يا ذا المخوّفنا بقتل أبيه إدلالاً وحينا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومَيْنا[٢]

كما يشك في ما نسب إلى عمرو بن قميئة، وكان من المعمرين، من أنه صحب امرأ القيس في رحلته إلى القسطنطينية، ومن أنه قال:

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢١١.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٢١١.

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عنان لجامي...

وأما مهلهل، خال امرىء القيس، والقول أنه أول من هلهل الشعر، فشعره منحول وضعه المتعصبون لربيعة نكاية بمضر، وضعوه ليثبتوا لمضر أنهم أصحاب مجد وفروسية وشعر وبلاء في الحروب، قاتلوا الفرس في ذي قار، والغساسنة والمناذرة.

ويعلل طه حسين ما ذهب إليه من القول في مهلهل وشعره، بالسؤال كيف يكون شعره أقدم شعر وهو سهل للغاية، واضح كل الوضوح، ومنه قوله:

أليلتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري
فإن يك بالذنائب طال ليلي فقد أبكي مع الليل القصير.. الخ

ومثلما شك في شعر المهلهل، شك في شعر جليلة، امرأة أخيه كليب، وهي التي تقول في أبيات ترثي فيها كليباً:

خصّني قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي[1]

وأما عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، وهما من ربيعة فليس صحيحاً بالنسبة إلى الأول أنه أقدم على قتل الملك عمرو بن هند بحجة أن أمّه أهانت أم الشاعر ليلى بنت مهلهل، وأنه قال معلقته التي يفخر بها مدافعاً عن تغلب، وذلك لسبب بين واضح هو شدة سهولة شعرها. وبالنسبة إلى الثاني فلا صحة لمعلقته التي يرد بها على فخر الأول، إن المعلقتين معاً، أو القصيدتين، بالأولى، وضعتا وضعاً، واضع الأولى ميال في الشعر إلى السهولة، وواضع الثانية ميال إلى الفخامة والقوة والجزالة[2].

وأما طرفة وخاله المتلمس، وكلاهما من ربيعة، فلا صحة لما زعم من أنهما حملا كتابين من عمرو بن هند، فيهما أمر الملك عامله بالبحرين بقتلهما، وأن المتلمس قرأ كتابه وهو في الطريق إلى البحرين، فعرف ما فيه، ففرّ ونجا بنفسه، وأن الثاني أصرّ على عدم فضّ الكتاب، فلما وصل إلى البحرين كان فيها حتفه. إن شعر طرفة في الناقة، يقول طه حسين، كله منحول عليه، وإن شعره في الموت والحياة، وهو الذي يعرف بشعر الخواطر، مشكوك فيه، وإن كان لا سبيل البتة إلى إنكار جمال هذا الشعر وجودته[3].

---

(١) نفسه ص ٢١٣. (٢) في الأدب الجاهلي ص ٢٢٥. (٣) في الأدب الجاهلي، ص ٢٣٠.

وأما الأعشى فإن الشك هو الغالب في ما قيل عن اسمه، وحياته، وحياة أبيه قيس الذي قالوا إنه لقب «بقتيل الجوع» لأن صخرة سدّت عليه الغار، فقضى جائعاً، كما أن الشك هو الغالب على ما قيل من وفادته على النبي ﷺ، وأن أبا سفيان أعطاه مائة ناقة طالباً إليه الرجوع عن وفادته على النبي ﷺ بحجة أن الإسلام يحرّم الزنا والخمرة، وأنه عاش باليمامة، وأن قبره مزار للشاربين واللاهين يصبّون عليه الخمرة، وأنه كان صاحب لذة وشراب، وأن النقاد أعجبت بشعره الخمري، علماً بأن للأعشى شعراً في المدح يفوق بكثير من جماله جمال الشعر الخمري. ويستطرد طه حسين قائلاً إن شعر الأعشى اخترع في الكوفة اختراعاً، ولا صحة لما أشيع عنه أن المحلّق أهداه زقاً من خمر، وناقة، اتقاء من لسانه، وأن بنات المحلق زوّجن إثر تشبيب الأعشى بهن، وأنه كان يتكسب بالشعر، ويطوف بالبلدان، وأنه مدح كسرى وأهل نجران، والأشعث بن قيس الكندي، والأسود العنسي، والأسود بن المنذر، أخا النعمان، وهوذة بن علي، كما يشك في قصيدته التي يمدح فيها النبي ﷺ، ومنها قوله:

ألا أيّهذا السائلي أين يمّمت	فإن لها في آل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة	ولا من حفًى حتى تزور محمدا
نبيّ يرى ما لا ترون وذكره	أغار لعمري في البلاد وأنجدا. . .

لكن طه حسين يستدرك قائلاً إن الأعشى قد يكون له شعر في الغزل والخمرة والوصف، لكن بعضه منحول، وفي شعره الكثير من المنحول، على أن أهم ما استدرك عليه طه حسين، وقد خشي أن يساء فهمه، ويتهم بالكفر إذ طرح ما يعرف بقضية «الانتحال في الشعر الجاهلي»، فنبه على القرآن أثبت نص عربي يستدل به على عربية الشعر الجاهلي، ولا يستدل بالشعر على عربية القرآن[1].

هـ ـ شعراء مضر:

هذا عن شعر ربيعة، أما عن شعر مضر، وهي التي فيها النبوة والخلافة، فإن طه حسين، وللأسباب عينها، أي للأسباب العصبية والقبلية والسياسية، يرى فيه القليل، لا الكثير، من الدخيل والمنحول، يردون به على شعر ربيعة. ويرى فيه القليل، لا الكثير، لأن مضر كان لها اللغة التي نزل بها القرآن، وإن شعر

---

(١) نفسه، ص ٢٤٤.

مضر ضاع أكثره، ويقي أقله الذي لا يخلو بدوره من الوضع والتكلف والنحل[1].

وبالنسبة إلى بداية شعر مضر فإن طه حسين ليحار في نشأته وتطوره، كيف نشأ هكذا، وفيه العروض والقافية واللغة والصورة والمعنى، والوحدة الفنية؟ هذا ما يحير طه حسين، فعلاً. والمهم أنه أرخ لنا هذا الشعر، وترجم لشعرائه فحدثنا عن عبيد بن الأبرص، صاحب المعلقة المنسوبة إليه ومطلعها:

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

يشير طه حسين إلى ظاهرة تسترعي الاهتمام وهي أن معظم الشعراء الجاهليين كانوا ممن أدرك الإسلام، وأن الذين ماتوا في الجاهلية لا يتجاوزون العشرة فقط.

ويذكر لنا شيئاً من شعر أبي طالب في مدح النبي ﷺ، وشعر حسان وغيرهما من الشعراء الذين يشك في بعض شعرهم، قليله أو كثيره.

وينفي طه حسين ما قيل عن أبي ضيغم أنه أنشد في ليلة واحدة لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو، وما قيل عن حماد أنه أنشأ مائة قصيدة على كل حرف من حروف المعجم، وأنه يستطيع أن ينشد سبعمائة قصيدة أول كل منها: بانت سعاد؟ كما ينفي ما قيل عن الأصمعي أنه كان يحفظ ألفاً وأربعمائة أرجوزة، ومثله أبو تمام. ويصدق طه حسين ما ذهب إليه ابن سلام في طبقاته من أن الشعراء الجاهليين كانوا سبعين شاعراً، منهم أصحاب الطبقات العشر، وعدتهم أربعون شاعراً، وأصحاب المراثي وعدتهم أربعة، وشعراء القرى، وعدتهم ثمانية في مكة، وخمسة في المدينة، وأربعة في الطائف، وثلاثة في البحرين.. كذلك يصدق روايته القائلة إن لليهود ثمانية شعراء، وأنه لا يعرف لليمامة شعراء.. وهو لا يصدق رواية صاحب «الأغاني» التي تقول إن لمضر سبعة وستين شاعراً، ولليمن أربعين، ولربيعة ثلاثة عشر.[2] . . .

و ـ النقد الداخلي:

إزاء هذا الاضطراب في الرواية والسند، كان لا بد، في رأي طه حسين، ومن أجل إثبات صحة الشعر، ونسبته إلى صاحبه، لا بد من استخدام النقد

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٤٥.   (٢) نفسه ص ٢٥٦.

الداخلي، نحكم به على النص، من خلال البحث والتحليل، وهذا النقد يقوم على درس الألفاظ الواردة في النص، ومعرفة ما إذا كانت ألفاظاً جاهلية أو إسلامية. حتى الألفاظ نفسها، ولوحدها، لا تكفي للحكم على النص ونسبته إلى الأديب الجاهلي، إنها ليست مقياساً علمياً يعتمد عليه، ومثلها النحو والعروض.

إن الحقيقة، كما يراها طه حسين، هي أن ثمة شعراً قيل قبل الإسلام، وأثناءه، لكنه شعر مختلط ومضطرب. ويرد طه حسين الرواية القائلة إن الشعر الجاهلي هو الشعر الذي فيه غرابة اللفظ ومتانته، باستثناء شعر عدي بن زيد الذي غلبت عليه السهولة، وذلك لأنه عاش في بيئة متحضرة، هي بلاط المناذرة، لا حجة لهذا القول، يقول طه حسين، لأن ثمة شعراً قوياً ومتيناً، وفيه غرابة اللفظ، للنابغة الذبياني، وعاش مثل عدي في بلاط المناذرة ردحاً من الزمن، فيما نجد أن شعر المنخلّ، وكان معاصراً للنابغة واتصل بالنعمان، نجده رقيقاً وكأنه شعر عباسي، وإن منه قوله:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل بالدمقس وبالحرير...

ومثله شعر ربيعة، وبخاصة شعر الأعشى، ويتسم بالسلاسة والسهولة والرقة. إذن، لا عبرة في غرابة الألفاظ للحكم على شعر إنه جاهلي، وإلاّ كان رؤبة والعجاج جاهليين، وهما أمويان عباسيان، وشعرهما يصعب أن يفهمه القارىء لما فيه من غريب اللفظ وحوشيه[1].

ز ـ المدارس الشعرية:

إزاء هذا الواقع، أو الحقيقة، حقيقة أن ليس كل شعر بدوي الطابع هو جاهلي، وليس كل شعر رقيق اللفظ هو إسلامي أو أموي أو عباسي، إزاء هذا، لا بد، في رأي طه حسين، من اعتماد مقياس علمي يطمئن إليه. إنه المقياس القائم على اللفظ والمعنى معاً، لا على اللفظ وحده، ولا بد من اعتماد مقياس فني تاريخي، هو مقياس المدارس الشعرية، لا الشعراء منفردين، وإن من هذه المدارس في الجاهلية، المدرسة الأوسية، وهي تضم كلاً من أوس بن حجر، وزهير والحطيئة، وكعب بن زهير، ومدرسة قيس بن الأسلت، وقيس بن

---

(١) في الأدب الجاهلي، ص ٢٦٠.

الخطيم، وحسان، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعبد الرحمن بن حسان، وسعيد بن عبد الرحمن، وسائر شعراء الأنصار في المدينة، وثمة مدرسة مكة لاحقاً وهي تضم ابن أبي ربيعة والعرجي، ومدرسة الشماخ بن ضرار البدوية، وكانت تنافس مدرسة أوس وزهير[1].

ويسترسل طه حسين في الحديث عن هذه المدارس الشعرية، فيحدثنا عن زعيمها ومؤسسها أوس بن حجر، وهو من مضر، وعن تلميذه زهير بن أبي سلمى، وكان راوية لشعر أستاذه، وتمتاز معاني هذه المدرسة بأنها معان بدوية، وألفاظها متينة، لا تخلو من الغريب، وخيال شعرائها خيال حسيّ، وفي شعرهم التأني والروّية، وكثرة التشبيه، والاستعارة والمجاز. هكذا شعر أوس، وشعر زهير، والحطيئة وكعب.

وهنا يبرز طه حسين ناحية مهمة وهي أن ما قيل عن مدرسة مسلم بن الوليد وأبي تمام وابن المعتز، في البيان والبديع، في العصر العباسي، ليست أول مدرسة نحا شعراؤها هذا النحو، بل سبقهم إلى ذلك شعراء المدرسة الأوسية في الجاهلية. . ثم يعرض علينا شعراً مختلفاً لأوس، ثم لزهير، ثم لكعب بن زهير، فالحطيئة، فالنابغة[2].

ح ـ الشعر والنثر العربيان:

وقد خص طه حسين الكتابين الأخيرين، وهما السادس والسابع، للحديث عن الشعر العربي، طبيعته ونوعه وفنونه، وموقف المعاصرين منه بين متعصب للقديم، ومتعصب للجديد، فأبان لنا أن الشعر العربي غنائي كله تقريباً، وأن فيه المدح والرثاء والهجاء، وفيه الفخر، والوصف والشكوى و. . .

وبين لنا بحوره الشعرية. كما تحدث عن النثر الجاهلي، فأسهب، فبين لنا ظهوره وأنه كان بعد الشعر، وأن فيه المنحول قياساً على نحل الشعر، كما فصل لنا فنونه من خطب، وأمثال، وحكمة، وكتابة مواثيق وعهود ووصايا. . . الخ[3]. .

وهكذا فإن كتاب «في الشعر الجاهلي» أو «في الأدب الجاهلي» يعتبر نموذجاً للأدب الوصفي، لجهة التأريخ الأدبي، ومثلاً يحتذى في البحث والدرس

---

(١) نفسه ص ٢٦٧. (٢) في الأدب الجاهلي، ص ٣٠٨. (٣) نفسه ص ٣٢٥ ـ ٣٣٣.

والتنقيب والتحليل والاستقراء والاستنتاج، كل هذا في أسلوب أدبي ممتع للغاية، فيه الطرافة والجرأة والاقتدار والتمكن من الكتابة الأدبية. وأخيراً، وحول مسألة الانتحال في الأدب الجاهلي، وما قيل فيها من أقوال تناولت طه حسين، وفيها الاتهام بالخروج على الأصول والقديم المتوارث، والتأثر بكتابة عدد من المستشرقين، فإنه ليحضرنا ما أشار إليه سعيد الأفغاني في مقالته التي تحمل عنواناً لها: «إنصافاً لطه حسين» نشرها في مجلة العربي، وهي تقول إن طه حسين تراجع عن كثير مما قاله في «الأدب الجاهلي» عن الانتحال، وأنه اطمأن أخيراً إلى صحة معظم الأدب الجاهلي شعراً ونثراً، فهو يعتذر عما بدر منه في كتابه الآنف الذكر[1].

ثالثاً: تطور الأدب في عصوره المختلفة:

أ ـ الغزل الأموي:

في «حديث الأربعاء» حديث مسهب عن الغزل وتطوره في العصر الأموي، والعوامل التي ساعدت على انتشاره، ورواجه، وتنوعه.

والفصول التي عرض فيها طه حسين للغزل، وما أكثرها إذ هي تنوف على الثلاثة عشر فصلاً، فصول غنية بالتاريخ لهذا الفن الشعري، والتاريخ لأعلامه وأصحابه سواء أكانوا من العذريين، أمثال قيس بن الملوح، وقيس بن ذريح، وجميل، وتوبة، وغيرهم من شعراء العفة في الغزل، أم من الماديين الإباحيين، أمثال وضاح اليمن، والعرجي، والأحوص، وزعيمهم غير المنازع عمر بن أبي ربيعة، أو ممن ترجح شعره الغزلي بين العفة والإباحة، وبين البداوة والحضارة، أمثال عبد الله بن قيس بن الرقيات، ويزيد بن الطثرية، وكثير. وقد أفرد طه حسين لزعيم الغزلين، عمر بن أبي ربيعة، فصلين اثنين، فحدثنا بالتفصيل عن حياة هذا الشاعر، وبيئته، ونشأته، وأسرته، وترفه، وغناه، وأثر هذا كله في شعره، وفي انتحائه هذا المنحى المادي الحضري في غزله، وبيّن لنا أثر السياسة في توجيه شعره هذه الوجهة، والمقصود بالسياسة، هنا، سياسة بني أمية الذين وفّروا سبل العيش بهناءة ورغد لعمر وأمثال عمر من القرشيين، وغير القرشيين ما يسّر لهم الانصراف إلى حياة اللهو والترف والمجون، والانشغال بالحياة الخاصة والتوفر على المتعة واللذة دون التفكير بالسياسة، وشؤون الحكم؛ ولم يفت طه حسين

---

(١) مجلة العربي ص ١٤٣ ـ ١٤٦. عدد ٢١٨ يناير ١٩٧٧.

التوسع في الحديث عن العوامل الأخرى التي ساعدت على رواج مثل هذا الشعر المادي الغزلي العابث والماجن، ويأتي في رأس قائمة هذه الأسباب والعوامل، عامل شيوع الغناء والألحان في كل من يثرب ومكة، والحجاز عامة، وذلك عن طريق الجواري والإماء، والرقيق الذي جيء به من بلاد الشام، ومن العراق، ومصر وغيرها من الأمصار والبلدان والأقاليم.

ولقد توسع طه حسين في التأريخ لظهور ما يعرف بالقصص الغرامي، وبيّن لنا أنه لم يأت فجاءةً، بل هو استمرار للقصص الغرامي الذي عرف في الجاهلية، وكان من روّاده الشاعر الجاهلي امرؤ القيس[١].

وبعد أن يستعرض طه حسين نماذج شتى من شعر القدامى من الجاهليين مثل لبيد، وطرفة، وزهير، وكعب بن زهير، والحطيئة، وعنترة، وسويد بن كاهل، والمثقب العبدي، ويدرسه دراسة تحليلية وصفية تبرز عناصر الجمال المتمثل بهذا الشعر القديم، مبيناً أن العلة في نفور أبناء العصر من الشعر القديم، إنما هي تعود إلى جهلنا به، وعدم توفرنا على مطالعته وقراءته قراءة متمهلة، واعية، فيها شيء من الصبر والأناة وإعمال الذوق والرأي، والوقوف عند الكثير من الصور الجميلة المنتزعة من الحياة الشخصية، والحياة العامة التي لا تبعد كثيراً عن حياتنا الخاصة، إلا في بعض التفاصيل، واختلاف البيئة والمكان والزمان، مستعرضاً الكثير من الألفاظ المستخدمة في ذلك الشعر، والتي لا تختلف اختلافاً بيناً عن الألفاظ الشائعة في لغة الشعر اليوم، إن لجهة سهولتها، وسلاستها، وفصاحة تركيبها، ودقة دلالتها على المعاني، مدافعاً عن غرابة بعض اللفظ الذي قد ينفّر لأول وهلة من يتوفر عليه، هذا اللفظ الذي ورد في شعر بعضهم، وفي أبيات قليلة لا تعد شيئاً بإزاء الأبيات الأخرى السهلة الفهم، القريبة التناول[٢]. . وبعد أن يندّد بالفكرة الشائعة في أوساط المحدثين، تلك الفكرة التي تقول إن الشعر الجاهلي يفتقد الوحدة الموضوعية، واللحمة العضوية، يبين طه حسين، ومن خلال انكبابه على دراسة شعر لبيد، بالدليل القاطع، والشاهد الحي، وجود مثل تلك الوحدة العضوية، تماماً، كوجودها في قصائد الحداثة، موضحاً عناصر الجمال المتوافرة فيها، ونسق الأبيات البديع، وذلك خلافاً لما يشاع أن الشعر القديم خال من هذه الوحدة المعنوية[٣]. .

---

(١) حديث الأربعاء ١/١٧٣ ـ ٣١٥. (٢) حديث الأربعاء ١/١٨ ـ ١٧٢. (٣) نفسه ١/٢٨ ـ ٣٩.

ب ـ أدب النهضة:

ومن أهم الموضوعات الأدبية التي أرّخ لها طه حسين، موضوع الأدب الجديد، أو أدب الحداثة الذي بدأت تباشيره مع العصر الحديث، وهو العصر الذي اتفق على أن يؤرخ له ابتداء من القرن التاسع عشر إثر الحملة الفرنسية على مصر، لكن الحداثة بمفهومها الصحيح لم تبرز إلى الوجود كتيار أدبي مستقل وشبه متكامل إلا في العقود الأولى من القرن العشرين، وهي الحقبة التي اتسع فيها اتصال الأدباء العرب ونقادهم وشعراؤهم بالغرب، فراحوا يتوفرون على قراءة الآداب الغربية الحديثة، فحملوا منها الكثير من خصائص التجديد، والثورة على القديم، إلى الأدب العربي، في الشعر والنظم، وما زالت هذه الحركة تتنامى حتى يومنا هذا وتؤلب حولها المؤيدين والأنصار.

والمهم أن طه حسين، وفي فصل من فصول كتابه الموسوم بـ «حافظ وشوقي» وهو كتاب جمع فيه طه حسين مجموعة من المقالات الأدبية التي كان نشرها في بعض الصحف خلال حقبة زمنية امتدت من سنة ١٩٢٢ حتى ١٩٣٢.

في هذا الفصل يتحدث عن حالة الأدب في أوائل هذا العصر، وعن العوامل التي ساعدت على تطوره، شعراً ونثراً، موازناً بين هذين النوعين من الأدب، ذاهباً إلى ملاحظة أن النثر كان أكثر استجابة لعوامل النهضة من الشعر، مبيناً سبب بطء الشعراء واندفاع الكتاب إلى الأخذ بأسباب الحداثة.

في مستهل هذا الفصل يعرض طه حسين إلى اطمئنان الأدب ورضى الأدباء بأدبهم وقناعتهم بما وصلوا إليه في أول هذا العصر، وكأن الذي وصلوا إليه بعد الخروج من عصور الانحطاط الأدبي، هو نهاية المطاف[١]. ثم يعرض لحال الشعراء والأدباء الذين كانوا مغرمين بالصناعة البديعية والبيانية، والذين كانوا في أشعارهم وكتاباتهم النثرية إنما يكتبون للخاصة، لا للعامة التي غلب عليها الانصراف إلى المواويل والأزجال، كما يعرض لحالة بدء التأثر بالغرب، لكنه كان تأثراً عقلياً، أكثر منه في العاطفة والشعور. ومعنى هذا أنه رغم إنشاء المدارس، وظهور الصحف، وترجمة بعض الكتب الغربية إلى العربية، إلا أن الأدب ظل في منأى من هذا التأثير، وبقي على صلة وثيقة بالقديم، فيما راح الطب وسواه من العلوم والفنون الحديثة يتطور مسرعاً الخطو نحو الحداثة والتجديد[٢].

---

(١) حافظ وشوقي، ص ٩.

(٢) نفسه ص ١٠.

ويتحدث طه حسين في هذا الفصل أيضاً عن أثر المطبعة في إحياء التراث العربي العائد إلى العصور الإسلامية الأولى، والمتمثل بالكتب الدينية والنحوية والصرفية والأدبية واللغوية على اختلافها ما كان له تأثير بالغ في غرس بذور الثورة على الجمود الذي كان يرين على أذهان الدارسين في الأزهر، وفي أذواق الكتاب والشعراء الذين وجدوا في تلك الكتب المطبوعة ما يحرك العاطفة، ويثير العقل، بخلاف ما كان سائداً في أذهان الكثيرين. من هنا، وتحت هذا التأثير أخذ الذوق يتغير متخذاً مظهرين اثنين، أولهما إيثار اللغة العامية على لغة أدب العصر، والثاني إيثار اللغة القديمة على اللغة المعاصرة، وكذلك الأسلوب. ولقد مثل أصحاب الاتجاه الأول، عثمان جلال الذي ترجم مسرحية موليير، الكاتب الفرنسي الشهير، واسمها «تارتوف»، ترجمها إلى اللغة العربية العامية بحجة أن لغة العصر لغة ميتة لا تحتمل ترجمة هذه المسرحية الفرنسية التي أسماها «الشيخ متلوف». ومثل الاتجاه الثاني عدد كبير من الشعراء والأدباء الذين توفروا على كتابة الأدب والشعر باللغة العربية القديمة متأثرين بشعراء الجاهلية والإسلام[1].

وباختصار، فإن الأدب، في نظر طه حسين، كان في مطلع القرن التاسع عشر يقوم على محاكاة القديم المتمثل بالأدب الذي عرفه العصر المملوكي والعثماني، وهو أدب تكثر فيه الصناعة البديعية، والبيانية، ويكاد يكون خلواً من الحياة والانسجام، مع روح العصر. ومع بداية هذا القرن ونتيجة لانكباب الأدباء على كتب التراث العربي الأدبي القديم في العصور الإسلامية، بتأثير الطباعة، عرف الأدب نوعاً من الإحياء للتراث، ما ظهر أثره واضحاً في الكتابة النثرية والشعرية التي تحاكي أساليب القدامى وعباراتهم. ولاحظ طه حسين أن الشعر كان أسبق إلى محاكاة القديم، ودليل ذلك شعر البارودي المتميز بالفصاحة والجزالة، أما النثر فإنه كان أبطأ تأثراً، ودليل ذلك نثر الشيخ محمد عبده المترجح بين الفصاحة القديمة وركاكة الحديث، والسبب في ذلك، يرده طه حسين، إلى صعوبة التخلص من قيود النثر[2].

وعلى صعيد التأثر بالنهضة الحديثة، فإن الكتاب كانوا أكثر تأثراً من الشعراء، وتعليل ذلك، من وجهة نظر طه حسين، أن النثر أكثر صلة بالحياة الاجتماعية، وأن الكتاب أشد إقبالاً على القراءة، فيما افتتن الشعراء بالقديم، وما

---

(١) حافظ وشوقي، ص ١١.

(٢) نفسه ص ١٣.

تجاوزوه إلا نادراً. وإن كان من فضل للشعراء، على هذا الصعيد، فإنما هو يتمثل بالإحياء، إحياء التراث وبعثه من جديد، أما الكتاب فإن لهم دوراً مزدوجاً، وفضلاً مضاعفاً يتمثل بالإحياء والتجديد معاً[1].

ج ـ النثر الفني في عصر النهضة:

وللدلالة على ما ذهب إليه طه حسين، يبين كيف أن النثر العربي، في بداية القرن التاسع عشر غلب عليه الضعف، والفساد، وخلا من المعاني القيمة، لا لشيء إلاّ لأن العصر كان عصر ضعف وانحلال في الحياة العقلية والفلسفية والعلمية. وهو يحذر قارىء هذا النثر أو متذوقه من زخرف ما يراه من التزيين اللفظي والبديعي والبياني، مشفقاً عليه من انخداعه بهذا النثر الذي هو أشبه ما يكون بغانية تقدم بها السن، ففقدت جمالها الطبيعي، فراحت تعوضّه بجمال مصطنع ميّت هو جمال الإغراق في التصوير البديعي والبياني. ثم يبين طه حسين لقارئه كيف أن النثر العربي في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين رقي نوعاً ما، وغني غناء ملحوظاً، وصار يستهوي العقول، شيئاً فشيئاً، لا لشيء إلا لأن روحه قويت، بالمعنى، وهذا المعنى المتحرر من قيود البديع، إنما هو مستوحى من الحياة العقلية الجديدة التي أخذت بأسباب العلم والفلسفة[2].

صحيح أن هذا النثر لم يتخلص تماماً من قيود البيان والبديع، لكنه إلى حد ما، راح يتحرر من هذه القيود، وراح يحاكي في معناه بعضاً مما في معاني النثر عند الغرب، بدأ هكذا بداية متعثرة، وخير مصداق له نثر الجبرتي في الثلث الأول من القرن الماضي، ثم راح ينهض من كبوته فإذا هو بين بين، يدل عليه النثر الذي عرفناه في مصر وبلاد الشام، في أواسط القرن عينه، ثم أخذ يملك زمام أمره، وإن لم يملكه تماماً، في الثلث الأخير من القرآن السالف الذكر، حيث المعاني الجيدة، والأفكار المستطرفة، وإن كان الأسلوب غير متحرر تماماً من قيود التصنع والتكلف اللفظي. وهكذا بدأ النثر ثقيلاً متباغضاً، بحسب تعبير طه حسين، قليل الحظ من الحياة العقلية، لا أثر فيه لشخصية صاحبه ولا لتفكيره، ثم أثرى العقل، بفضل الغرب، وبفضل الترجمة عنه، شيئاً فشيئاً، فأثرى النثر بثرائه، فالنثر إذن، وكما يقول طه حسين، النثر في هذا العصر «مدين للعلم والفلسفة، كما كان مديناً لهما في غير هذا العصر، ومن الحق على الكتاب

---

(١) حافظ وشوقي ص ١٤.

(٢) حافظ وشوقي ص ٥٨.

المجيدين أن يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من الفضل، وأن يقدروا ما للذين نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد، فلولا المترجمون في العصر الحديث ما عادت للنثر حياته»[1].

وينبه طه حسين على نقطة مهمة، في هذا السياق، هي أن تقدم النثر، ولو نسبياً وببطء، في العصر الحديث، لم يكن لأن العرب اطلعوا على علم الغرب وفلسفته الحديثة، فحسب، بل لأنهم اطلعوا، وبفضل عملية إحياء التراث، على كنوز النثر الفني الراقي الذي عرفه الأدب العربي القديم إبّان رقيّ عصوره الزاهية، ولا سيما العصر العباسي الأول فالثاني. لقد كان الكتاب في أوائل عصر النهضة يكادون لا يفقهون شيئاً من تراثهم الأدبي القديم، في الشعر والنثر على السواء، فلما قامت حركة الإحياء، إحياء التراث، وطبع كتبه القيمة انبرى عدد من هؤلاء التنويريين يعرفون للناس أثر هذا التراث القيم، ويكشفون عن كنوزه المدفونة، في الشعر والنثر والنقد واللغة، مدفوعين برواج العلم الذي أنشط العقول، وفكّها من إسارها. كما يرجع الفضل في ذلك لأولئك النفر من الأدباء التنويريين، والعلماء التقدميين الذين توفروا على ما في الغرب من أدب قيّم، فراحوا يترجمونه للناس ما أوجد صلة بين الشرق والغرب، فعادت إلى الشرق حياته العقلية والأدبية، تلك الحياة التي شهدها الشرق نفسه إبّان رقي الحياة العقلية، والفكرية عن طريق ازدهار الترجمة، ترجمة الآثار اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية. وكان مهد هذه النهضة أو الحضارة العلمية بلاد الشام، ومصر، إذ فيهما ازدهرت الحضارة الشرقية، واتسعت لتشمل أقطار الشرق الأخرى بتأثير من الحضارة اليونانية والرومانية وغيرها من الحضارات[2].

د ـ دور مصر والشام في تطور الأدب:

أجل كانت مصر وبلاد الشام، مستقر النهضة العلمية والأدبية، قديماً، وهي اليوم منطلق الحضارة الجديدة، والنهضة الحديثة، ولا أدلّ على ذلك من تلك الوفود من طلبة العلم الذين ترسلهم مصر إلى بلاد الغرب، للتخصص بشى المجالات العلمية، وتلك الوفود الأخرى الذين انطلقوا من بلاد الشام، ولبنان خاصة، فاطلعوا على حضارة الغرب ونهضته، ونقلوا هذه الحضارة إلى بلادهم، لكن مظهر النهضة في مصر اتخذ مساراً علمياً بحتاً، تقريباً، فيما اتخذ هذا

---

(١) نفسه ص ٥٩.

(٢) حافظ وشوقي ص ٦٠.

المظهر في بلاد الشام مساراً أدبياً لغوياً بحتاً، تقريباً، من هنا كان حفول القرن الماضي بالعلماء المصريين المتفوقين. ولقد ساعدت الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد الشام على نزوح عدد كبير من الأدباء اللبنانيين والسوريين وعلمائهم إلى مصر، فكانت القاهرة خاصة، مستقر الحركة العقلية في الشرق، وملاذ الهاربين من الظلم والعسف والجور ليجدوا فيها متنفساً لأفكارهم والتعبير عن خلجات نفوسهم، وبالشعر والنثر، وغير الشعر والنثر، كما في الصحافة التي أفردت صفحاتها لتلك النهضة العلمية والأدبية[١].

لقد تقدم النثر الفني، إذن، تقدماً ملحوظاً للأسباب التي ذكرنا من قبل، وهي تتمثل بعملية إحياء التراث القديم، وبالاتصال بالغرب، وبترجمة الكتب الأدبية وغير الأدبية، إلى العربية، وكان للصحافة، كما بينا، وللأدباء السوريين واللبنانيين أكبر الفضل في إنماء الحركة الأدبية والعلمية، وفي تضييق المسافة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، إذ راح هؤلاء يأنسون لما يكتب، ولم تعد حال النثر كما كانت عليه أيام الجبرتي في بداية عصر النهضة؛ ولا يمكن في هذا المقام، إغفال الدور الوطني والسياسي وتأثيره في تقدم النثر، إذ أن كثيراً من الحركات الوطنية المصرية، وجدت في الصحافة منبراً لها تنشر من على صفحاتها أفكارها ومبادئها، بلغة أدبية خالية تقريباً من السجع، والكلف بالبديع؛ وكان للنتائج التي تمخضت عنها الحرب الكونية الأولى أثر في تعميق اتصال الشرق بالغرب، ما أثرى الفكر السياسي، وهذا أثرى الحركة الأدبية، والنثر خاصة، ما أوجد فيه فنوناً مستحدثة، وأساليب متباينة من الطعن والخصومة لم يعرفها النثر العربي من قبل[٢].

لقد كان للصراع الحزبي، ولتبني عدد من الصحف مواقف سياسية معينة تخص هذا الحزب أو ذاك، أثره الفاعل في تطوير النثر الفني، إذ راحت الصحافة تعنى بنشر فصول ممتعة من الأدب والسياسة والعلم والفلسفة والفن، محاكاة للصحف الغربية، حتى أن الجمهور المصري خاصةً، والعربي عامة، لم يكن ليتحمس كثيراً لقراءة الصحيفة، أية صحيفة، إن لم تقدّم له إلى جانب السياسة، شيئاً من الزاد العلمي أو الأدبي أو الفلسفي أو الفني، وسرعان ما انتشرت هذه العادة، أي الجمع بين الأدب، والسياسة في شتى أرجاء العالم العربي، وصارت

---

(١) نفسه ص ٦١.

(٢) حافظ وشوقي ص ٦٣.

الصحافة مرجعاً من مراجع اللغة والأدب والفنون والعلوم. وما الفضل في هذا كله إلا للأدب، وذلك لأنه وحده، وحسب تعبير طه حسين هو «الذي يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حراً بريئاً منتجاً بعد أن فرقت بينها السياسة»[١].

مبحث ثان: في النقد الأدبي

قلنا إن الأدب الوصفي على ضربين اثنين هما: تاريخ الأدب، وقد عرضنا له، وبيّنا كيف أن طه حسين كان أفضل من كتب فيه، وأبرعهم في عصره، والنقد الأدبي، وهو الأدب الذي يتناول فيه صاحبه أثراً أدبياً بالتحليل، ويرمي إلى تبيان ما فيه من جمال أو قبح، والكشف عن التجربة الإنسانية أو الذاتية أو الاجتماعية، وأبعادها، وصلتها بالواقع، أو تحلّلها منه، والقدرة على استشفاف استيعاب هذا الأثر للحاضر، أو إطلالته على المستقبل، وقدرته على الإيحاء، وما إلى ذلك من معان. والنقد الأدبي يشترط توافر عدة شروط في الناقد منها الذوق، والثقافة، والشفافية، والموهبة والممارسة، والمعرفة بمذاهب الأدب وفنونه، وإن كان أشهرها أربعة هي: المذهب التاريخي، والنفسي، والاجتماعي، والمتكامل. فالمذهب التاريخي يعنى فيه صاحبه بموقع الأثر الأدبي، وصاحبه من العصر؛ والنفسي يرمي إلى تحليل الظاهرة النفسية الكامنة وراء هذا الأثر الأدبي؛ والاجتماعي يعتبر الأثر الأدبي ظاهرة اجتماعية فصاحبه ملتزم بمعالجة القضايا الاجتماعية؛ أما المذهب المتكامل فهو المذهب الذي يأخذ فيه صاحبه بالمناهج الثلاثة السالفة الذكر معاً. ودع هذا، ألم يقل طه حسين في النقد معرفاً: «النقد صنيعة يسديها الناقد إلى الكتاب والشعراء لأنهم يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون. ويعرفون رأي الناس فيما يكتبون ويقولون، فيقفون على مواضع القوة والضعف في فصولهم وقصائدهم فينفعهم هذا ويزيدهم قوة إلى قوة ويعصمهم من السقوط والإسفاف. النقد إقرار للحق في نصابه ودفاع عن الفن، وتبصرة لما في الآثار الفنية من جمال أو عيب»[٢].

والآن ماذا عن طه حسين أديباً، من خلال كتاباته النقدية الأدبية؟ هذا ما سنعرض له من خلال بعض النماذج التي اخترناها من بعض كتبه، وما أكثر النماذج الدالة على ألمعية طه حسين في النقد الأدبي، وما أكثر الكتب والمقالات

---

(١) نفسه ص ٦٣.

(٢) حافظ وشوقي ص ٨٠.

والأبحاث التي خاض فيها طه حسين لجّ هذا البحر المتلاطم، عنيت النقد الأدبي، فكان فيه الغوّاص البارع، والناقد اللامع، فلنعرض إذاً لبعض نماذج من نقده الأدبي، اضطراراً، لا اختياراً، لأن البحث في هذا الموضوع واستيفاؤه جميعه يحتاج إلى كتب، لا إلى كتاب، وفصول طويلة هيهات أن يغني عنها هذا الفصل المجتزأ القصير.

أولاً: في نقد النقد

أ ـ نموذج أول (حول الشعر والنثر):

من أجمل النقد الأدبي الذي تمرس به طه حسين، وكان فيه رائداً من رواده في العصر الحديث، نقده مقالاً لمحمد حسين هيكل، نشره في جريدة «السياسة» ويحمل عنواناً له هو «الشعر والنثر» وفيه ملاحظات قيمة لهيكل على نهضة الشعر والنثر في بداية القرن العشرين، ولما قرأ طه حسين مقال هيكل كان له جولة في عالم النقد الأدبي، موفقة، إذ هو استخدم في نقده لغة العقل والمنطق، واهتدى إلى كشف مواطن الجمال أو القبح في المقالة، بالشاهد والدليل، مستخدماً طرق الاستقراء والتحليل والتعليل والمقارنة والموازنة، والاستنتاج على ضوء مناهج البحث الأدبي، فكان له على ملاحظات هيكل ملاحظات، وفي آرائه التي ذهب إليها وأحكامه، آراء وأحكام.

وإن من أهم ما ذهب إليه طه حسين في نقده ما يلي:

لقد استهل طه حسين بحثه النقدي الأدبي الممتع والرصين بالثناء على الكاتب، وعلى فصله الممتع عن النثر والشعر الحديثين، الممتع في لفظه ومعناه، وفي الأسلوب وطريقة العرض، وفي الإجادة والإتقان اللذين حرص هيكل على العمل أو التوفيق لهما، فوفق إلى ذلك، لا لشيء إلاّ من أجل الحصول على ثناء القراء، لكن، وكما يقول طه حسين «للثناء حد، وليس للجمال الفني حد، وإنما الجمال الفني مثل أعلى يمضي أمامنا، ونحن نسعى في أثره، فيزداد حظك من الإجادة والإتقان»[1].

بعد هذا الثناء المجمل على هيكل، وثناء آخر عليه، لجهة توفيقه في ملاحظة أن النثر العربي الحديث قد نهض نهضة مباركة، وصار يعبر عن حاجة

---

(١) حافظ وشوقي ص ٩٧.

العقل والشعور، تبعاً لتطور العقل والشعور، ولجهة توفيقه أيضاً في ملاحظة أن النثر العربي الحديث لا يزال في حاجة إلى المزيد من المرونة واللين والثراء اللفظي، ولجهة توفيقه في أن بعض الكتاب المحدثين استقلوا بأساليبهم الكتابية، فكان لهم شخصية مغايرة لشخصية القدماء، ورأي مخالف لهم، ولجهة توفيقه رابعاً في أن الشعر ما زال بعيداً عن الرقي والمرونة والقوة، وأن الشعراء لم يصلوا إلى ما وصل إليه الكتاب من الاستقلال عن القدماء، لفظاً، وأسلوباً، ورأياً، وشخصية[1]..

بعد هذا كله، كان لا بد من إبداء الملاحظات النقدية السالبة، لا الموجبة.. وكان لا بد من إظهار عيوب المقالة، بعد إظهار حسناتها.. فها هو طه حسين، دأبه في كل مبحث من مباحثه النقدية، يأخذ على هيكل عدم بحثه عن أسباب رقي هذا النثر الحديث، وأسباب تخلف الشعر، إنه يتساءل عن العلة التي من أجلها صار النثر صالحاً للتعبير، فيما الشعر ما انفك جامداً، أو شبه جامد، لا لين فيه، ولا مرونة، ولا جدة، ولا حياة؟

ثم إنه يتساءل عن السبب الذي من أجله تمايز الكتاب بشخصياتهم، فيما عجز الشعراء عن مثل هذا التمايز؟ وكان حرياً بهيكل أن يصمت عن الإجابة عن هذه التساؤلات التي طرحها طه حسين، لأنه لم يذكر منها شيئاً. وكان حرياً بطه حسين أن يجيب عنها، في معرض نقده، فيبين لهيكل أن السبب الرئيسي لجمود الشعر، وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة، هو أن شعراء العصر مصابون بداء الكسل العقلي، مزدرون للعلم وللعلماء، مغرورون، منصرفون عن القراءة والدرس والبحث والتفكير بحجة أنهم شعراء أصحاب موهبة وخيال، فليسوا بحاجة إلى البحث والتفكير لأن هذا «من شأن العقل، والعقل عدو الخيال، فهو عدو الشعر، والعقل ميزة الفلاسفة والعلماء، والشعراء أجلّ من أن يكونوا فلاسفة وعلماء»[2].

إذن، ليس صحيحاً، وعلى حد تعبير طه حسين، أن الشعر خيال صرف، وأن النثر عقل صرف، بل إن الملكات الإنسانية الفردية، كحياة الجماعة، رهينة بالتعاون.. فالعالم في معمله قد يستخدم الخيال أكثر من الشاعر، وكم من

---

(١) نفسه ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) حافظ وشوقي ص ٩٨.

اكتشاف علمي قام على الخيال، فأتى بالعجب العجاب، وليس صحيحاً أن الشعر خالٍ من العقل، ولكنها حجة الشعراء المعاصرين يتذرعون بها، وليس بها من الحقيقة شيء؛ إنهم يتوكأون على معاني القدماء، ويقولون إن الشعر لا يحتاج إلى العقل، لأن القدماء اعتمدوا على الخيال، والخيال ليس غير.. إنهم، أي الشعراء المعاصرون، لو فكروا جيداً، وأعملوا الرأي لوجدوا أن القدماء كانوا أصحاب خيال، وعقل وعلم أيضاً، وأن شعرهم كان شعر خيال، وعقل وعلم أيضاً.. إن الشعراء، في الجاهلية، يقول طه حسين، كانوا أصحاب علم، ومثلهم الشعراء الأمويون، وليس أدل على ذلك من جرير والأخطل اللذين كانا يعلمان علم الشعبي، وهو أحد علماء الحديث، وعلم ابن عباس، وهو من هو في العلم والحديث. وكذلك في العصر العباسي، فإن أبا نواس كان محدثاً وأخذ عنه الشافعي، وكان متكلماً يخوض في مسائل علم الكلام، وفيلسوفاً، أو متفلسفاً اطلع على الفلسفة، وجادل النظام وناقشه في الكثير من آرائه.. ومثله أيضاً كان المتنبي وأبو العلاء المعري، وغيرهما كثير من الشعراء أصحاب الخيال والعلم والعقل معاً[1].

من هنا كان جمود الشعر في هذا العصر، وكان تخلف الشعراء عن اللحاق بركب العصر، لأنهم عاجزون عن التطور والتقدم، وهذا بخلاف الكتاب الذين يقرءون ويتعلمون، فهم متصلون بالعصر، يتعلمون ويبحثون لذلك برزت شخصياتهم، وظهرت أفكارهم، وكانوا قادرين على الخلق والابتكار.

إن العلة في خلو الشعر العربي، إذن، من الشخصية الحية، تكمن في أن شعرائنا متكبرون، كسالى، يؤثرون الجهل على العلم، والكسل على العمل، فيما شعراء الغرب نشطون، علماء، يقرءون ويبحثون ويدرسون، يؤثرون العلم على الجهل، والعمل على الكسل، وهذا هو حال لامارتين، وهوجو، وأمثالهما من الشعراء الذين اتصلوا بالعلم والفكرر فكانوا خلاقين ومبدعين، وكنا مهملين ومقصرين وعاجزين[2].

والمصيبة الكبرى، يتابع طه حسين، أن شعرائنا هؤلاء الكسالى في عقولهم أصابوا القراء بطريق العدوى، فأفسدوا ذوقهم الأدبي، وعودوهم على هذا اللون

---

(١) نفسه ص ٩٩.

(٢) حافظ وشوقي ص ١٠٠.

من الشعر الخالي من أثر العقل والخيال، فصاروا لا يستسيغون شعراً آخر فيه أثر من آثار الحياة العقلية القوية. والمصيبة الكبرى أيضاً، أن عدداً من شعرائنا المجيدين، غير كسالى في طباعهم، ويحبون القراءة، ويبحثون ويدرسون، لكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من القراء تشيجعاً، وهم لا يجدون من الشعراء الآخرين إلا حرباً وتنديداً، وإن من شعرائنا المثقفين المبدعين، وهم قليلون، خليل مطران، والعقاد، في مصر، والزهاوي، والرصافي، في العراق. والفرق بين العقاد، في مصر، والزهاوي في العراق، ومطران، في لبنان، هو أن الأخير يذعن للقراء فيسيء إلى نفسه، وإلى الشعر إذ هو يؤخر تطوره، فيما لا يذعن للقراء، ولا يحفل بإعراضهم كل من العقاد والزهاوي، وذلك لأنهما يؤمنان بمذهبهما وفلسفتهما في الشعر. وهكذا، وكما يقول طه حسين «فإن ظاهرة الكسل العقلي تظهر أولاً عند الشعراء، ثم تنتقل إلى القراء، ثم تعود من القراء إلى الشعراء، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً، وتحول بين هذا الفن وبين حقه من التطورر والتجديد»[1].

وختاماً لهذا الفصل فإن طه حسين ينبه صاحبه هيكلاً على حقيقة أن الشعر لم يكن كل شيء في العصر العباسي، بل كان لهم نثر جيد وقيّم، والعلة ليس فيه، بل فينا نحن لأننا لم نقرأه، ولم نعن به العناية التي يستحقها. كما يتوجه بالنصح له أن يلتمس الشعر الجيد الذي هو صلة بين نفس الشاعر ونفوس القراء، والذي هو بعيد كل البعد عن التملق والكذب، والمناسبة العابرة، ينصحه أن يلتمسه، لا عندنا، بل «عند قوم عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فصانوها عن أن تكون أداة للهو والزينة»[2].

ب ـ نموذج ثانٍ (حول مقدمات دواوين الشعراء):

من المعروف في الثلث الأول من هذا القن أن كلاً من أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، كان من ألمع الشعراء وأبعدهم صيتاً، وأكثرهم شهرة، وللدلالة على هذا فإن الأول لقب بـ «أمير الشعراء»، والثاني بـ «شاعر النيل» أما الثالث فقد لقب بـ «شاعر القطرين». والثلاثة كانوا معاصرين لطه حسين؛ وحول نشر دواوين الشعراء الثلاثة، وقد قدم للديوان الأول محمد حسين هيكل، وللثاني محمد إبراهيم هلال، وللثالث، خليل مطران نفسه.

---

(١) نفسه ص ١٠١.

(٢) حافظ وشوقي، ص ١٠٢.

حول هذه الدواوين وما جاء في مقدماتها الثلاث، كان لطه حسين رأي وتعليق، ونقد عام في غاية الجرأة والصراحة، ومن هذ الآراء النقدية العمومية، غير المفصلة، ما ذهب إليه عميد الأدب من أن مذهب كل من حافظ وشوقي، في الشعر، يصعب على الدارس تبينه إلاّ إذا قرأ شعرهما كله، واستقصاه غاية الاستقصاء، في حين أن مذهب مطران الشعري يبين للقارىء حتى من قراءته البيت الواحد.[1] كان على هكيل، وهو الأديب البارع، والواسع الثقافة، الذي قدم لشعر شوقي، كان عليه أن يلمّ في مقدمته، لمذهب شوقي في الشعر، لكنه لم يفعل، ربما لأن شعر شوقي لم يستطع أن يلهم هيكلاً ما استطاع أن يلهمه إياه نثر الكتاب الفرنسيين وشعر الشعراء الإنكليز الذين قدم لهم، وعلى رأسهم شكسبير. إن طه حسين ليعجب من مقدمة هيكل التي خلت من إظهار عقيدة شوقي الشعرية، اللهم إلا ما تحدث عنه في أن شوقي كان في شعره مجدداً، حيناً، ومقلداً، حيناً آخر. وهو، أي شوقي، في تجديده وتقليده ما كان ليصدر عن مذهب شعري فني واضح، بل هو شاعر يتأثر بالساعة التي يتهيأ فيها لقول الشعر، وبالظرف الذي يعرض فيه الشعر، ليس غير[2]. وحول ما ذهب إليه هيكل في مقدمته لشعر شوقي، من أنه كان مؤمناً، وفي الوقت عينه كان محباً للحياة ولذائذها، يعلق طه حسين معللاً هذه الظاهرة بالقول إن صناعة الشعر أظهرت للشعراء شخصيات مختلفة جداً، وبخاصة في الأدب العربي المعاصر الذي لا يمثل صاحبه تمثيلاً صحيحاً، بل هو يمثل تكلّفه ورغبته في إرضاء القرّاء. أجل، إن معظم شعراء العصر، في نظر طه حسين، هم مقلدون يحاكون الذين سبقوهم، ويقلدونهم في ما تطرقوا إليه من ألوان الشعر وأغراضه، فلأن كلاً من أبي العلاء والمتنبي، برع في الحكمة، ولأن كلاً من أبي نواس، والأخطل الكبير، برع في الخمرة، ولأن البوصيري برع في مدح النبي ﷺ وخصوصاً في قصيدته المسماة بـ «نهج البردة» فإن شعراء العصر يعملون على محاكاة هؤلاء وغيرهم، ومجاراتهم في ما ذهبوا إليه لعلهم ينالون الشهرة التي نالها أولئك، ويبلغون المستوى الذي بلغوه. إنه التكلف، يقول طه حسين، والتصنع الذي يحول بين القارىء وبين الوصول إلى فهم شخصية شعراء العصر، وفهم حياتهم حق الفهم. من هنا، كان خطأ المؤرخين الذين أرخوا للأدب وللأدباء، ومن هؤلاء المؤرخين هيكل نفسه. إن ازدواج الشخصية في شعر شوقي، يقول طه

---

(١) حافظ وشوقي ص ١٧.

(٢) نفسه ص ١٨.

حسين، هذا الازدواج الذي يلمحه هيكل «لا يدل في حقيقة الأمر إلا على أن أمير الشعراء يقلّد المؤمنين والمستمتعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر»[١].

ولم يكن حسين في نقده مقدم ديوان حافظ، بأقل قسوة أو أشد رحمة، من نقده مقدم ديوان شوقي، فهو، أي طه حسين، يرى أن مقدمة ديوان حافظ «لا تدل على شيء، وصاحبها يفهم الشعر على الطريقة العتيقة، وظرف الحكمة ـ أي وعائها ـ، ومسرح الخيال، ومغنى الفصاحة، وخدر البلاغة، ووعاء الحقيقة، إنه ثرثرة وتكرار كلام مرصوص، ولفظ مصفوف لا مزية له إلا أنه منتقى مختار»[٢].

وأما حول مقدمة ديوان خليل مطران، وصاحبها مطران نفسه، فيقول طه حسين إنها «مقدمة متعبة لما فيها من السجع، وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئاً فقاله: هو ثائر على الشعر القديم، ناهض مع المجددين؛ وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه، فأعرض عن الشعر، ثم اضطر فعاد إليه، وحاول أن يعود إليه مجدداً لا مقلداً. وهو، أي مطران، ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد. هو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد. وهو شجاع يعلن ثورته على القديم، ويعلن حرصه على أن يلائم بين شعره وبين العصر الذي يعيش فيه. وهو معتدل لا يرفض القديم كله، وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها. وهو فني، له في مجال الشعر مذهب قيم لأنه يمثل شيئاً من المثل الأعلى الفني في هذا العصر، فهو يكره وحدة البيت، ويريد وحدة القصيدة؛ إنه يرى أن الشعر ليس خيالاً صرفاً، ولا عقلاً صرفاً، وإنما هو مزاج بينهما»[٣].

وخلاصة ما ذهب إليه طه حسين إثر قراءته المقدمات الثلاث، أنها تمثل الذوق الخاص، أي أنها تمثل أذواق الذين كتبوها، لا الذوق الأدبي العام في هذا العصر؛ إنها لا تمثل المثال الأعلى للجمال الفني في الشعر، بل هي ترداد لما يراه الذوق الخاص ليس إلا[٤].

ثانياً: في النقد مباشرة

أ ـ نقده لشوقي:

وما دمنا في الحديث عن شوقي وحافظ ومطران، فلنتحدث عن موقف طه

---

(١) حافظ وشوقي ص ١٩.

(٢) نفسه ص ١٩.

(٣) حافظ وشوقي ص ٢٠.

(٤) نفسه ص ٢٠.

حسين من شعر الأول، وهو شوقي، لنتبين شيئاً من خصائص نقده الأدبي، والطريقة التي اتبعها من أجل الوصول إلى هذه الخصائص. من خلال قراءة طه حسين قصيدة شوقي التي يعرب فيها عن فرحته لانتصار الترك على اليونان، وكان شوقي ميالاً إلى العثمانيين، محباً لهم، مؤثراً لسياستهم، حاذياً في ذلك حذو حكام مصر من الخديوين، من خلال قراءته هذه القصيدة المدحية السياسية والتي مطلعها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدّد خالد العرب[1]

يخلص بنتيجة مفادها أن الشعر المصري الحديث لا يتلاءم والذوق الحديث، أو الحقائق الواقعة، بل هو يمثل حياة القدماء، لا حياتنا؛ إنه قديم شكلاً، وصورة، ولغةً، يفهمه الذين يفهمون القديم ويتذوقونه، وإن خالفه في الحقيقة والجوهر والغرض. إن هذا الشعر، وأضرابه، في نظر طه حسين، لينم عن المأزق الذي آل إليه الشعر الحديث، كما نتبينه في شعر شوقي، وفي هذه القصيدة بالذات، هذه القصيدة التي تثبت فشل الشعر العربي المعاصر في الوصول إلى غايته الأساسية، وهي الإمتاع، إمتاع النفوس، والإشعار، إشعارنا لذة الجمال الفني. فأين هي هذه اللذة، وأين ذاك الإمتاع؟ صحيح أن القصيدة تصف انتصار الترك على اليونان، ولكنها لا تتحدث عن المدفع أو الطيارة، وغير ذلك من أدوات الحرب الحديثة، بل تتحدث عن السيف والخيل والدرع والرمح، وكأننا نعيش في عصر الجاهلية أو الإسلام، حيث لا تطور في أساليب العلم، ولا في أدوات القتال؛ إن الشاعر ينقلنا إلى أجواء المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل، ينقلنا إلى جو معركة بدر، ومعركة اليرموك التي شبه ببطلها خالد بن الوليد، أي خالد العرب، خالد الترك أي مصطفى كمال، زعيم تركيا وقائدها، فأين وجه الشبه، وما صلة هذا بذاك؟ إنه تأثير القديم يبدو جلياً في نتاج المحدثين، لغة، وصورة، وأسلوباً، ومعنى، أين هو الأدب المتطور، بل أين الذوق الأدبي النامي الذي يعمل على الملاءمة بين الشعر وعصره؟ يقول طه حسين، متحسراً شاكياً وساخراً، في الوقت عينه، ناقداً منحى شوقي، وقد عقب على قصيدته الآنفة الذكر: «لقد ضحكنا وأسينا حين قرأنا هذه القصيدة، أضحكنا مطلعها قبل كل شيء، وكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة كمال به حين كان العالم

(١) أنظر القصيدة، كاملة في ديوان شوقي «الشوقيات» ١/ ٥٩. تقديم محمد سعيد العريان.

الحديث يضطرب بذكر القواد والنابهين في الحرب الأخيرة. . . ضحكنا من قياس مصطفى كمال إلى خالد بن الوليد، والحق أنا لا نعرف أمدح شوقي مصطفى كمال حين قرنه إلى الفاتح العربي القديم أم ذمّه؟»[١].

ويمضي طه حسين في نقده الساخر لقصيدة شوقي، ومجافاتها لروح العصر، وعدم ملاءمتها للذوق العام، والتوكؤ فيها على القديم بشكل منفر للذوق، فيقف عند البيت القائل:

قذفتهم بالرياح الهوج مسرجة   يحملن أسد الشرى في البيض واليلب

وفيه يخاطب شوقي مصطفى كمال، يقف عند هذا البيت فيضحك لهذه الرياح المسرجة، وإن كان المراد بها الخيل، ويضحك لأسد الشرى على هذه الخيل، وإن كان المراد بها فرسان الترك، يقف عند هذا كله فيقول: «هو شاعر، أي شوقي، يقلد القدماء فلا ينبغي أن ينظر إليه إلاّ بأعين القدماء، ولا ينبغي أن يقاس إلا بمقاييسهم، وفي ذلك قضاء على القصيدة وحكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث»[٢].

وإذا كانت قصيدة شوقي، هذه، لا تثبت أمام النقد الحديث، فأين تثبت إذاً، وأمام أي نقد؟ حتى أمام النقد الأدبي القديم، لا تثبت هذه القصيدة، لماذا؟ وكيف؟

يقول طه حسين لصاحبه، وقد تصور نفسه لاجئاً إلى الشعر القديم الذي يحاكيه شوقي في قصيدته هذه، تصور نفسه وكأنه أبو العباس محمد يزيد المبرد، وتصور صاحبه أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلب، هذا كوفي، وذاك بصري، وهما إمامان في اللغة والنحو، ومتخاصمان، يقول طه حسين وقد صور نفسه كما سبق: «أما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة إلا من الألفاظ، ليس وراءها شيء»[٣]. ويبين طه حسين لماذا قال هذا القول ويدافع عنه، فيوضح لنا أنه ولو قايسناها، أي قصيدة شوقي، بقصيدة الأخطل التي يمدح بها عبد الملك بن مروان، ويصور فيها انتصاره على عبد الله بن الزبير، ومطلعها:

خفّ القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى في صرفها غير

والقصيدة الثانية التي مطلعها:

---

(١) حافظ وشوقي ص ٢٦ ـ ٢٧.   (٢) حافظ وشوقي ص ٣٣.   (٣) نفسه ص ٣٣.

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيّانا عدًى آخر الدهر

لوجدنا أن الأخطل يبدع في تصوير الهزيمة الفردية للخصم، وفي وصف الفرس والفارس الذي يلهبه، والرماح تنوشه، كما يبدع في لفظه المتقن السهل الرصين والمتخيّر، وفي ملاءمته روح العصر الأموي وذوق العرب، وفي تصوره المثل الأعلى، وهذا ما لم يوفق فيه شوقي أيّما توفيق[١].

كذلك يقارن طه حسين بين قصيدة شوقي، هذه، وبين قصيدة أبي تمام وقد احتذاها شوقي قافية، ورويا، ووزناً، ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

فيجد أن شوقياً احتذى أبا تمام، وقلده في اللفظ والمعنى أيضاً، وفي التشبيه خاصة، ومثال هذا الأخير، قول أبي تمام مشبهاً يوم عمورية الذي انتصر فيه المعتصم على الروم، بيوم بدر، يوم انتصار النبي ﷺ على المشركين:

إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو زمام غير منقضب

فبين أيامك اللائي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

ومثاله في شعر شوقي في قوله، وقد قبسه عن أبي تمام أتم الاقتباس:

يوم كبدر فخيل الحقّ راقصة على الصعيد وخيل الله في السّحب

غرّ تظلّلها غرّاء وارفة بدريّة العود والديباج والعذب

نشوى من الظّفر العالي مرنّمة من سكرة النصر لا من سكرة النصب

تذكّر الأرض ما لم تنسى من زبد كالمسك من جنبات «السّكب» منسكب

حتى تعالى أذان الفتح فاتّأدت مشي المجليّ إذا استولى على القصب[٢]

يقارن طه حسين بين التشبيهين، فيجد أن الأول وفق فيه صاحبه كثيراً، فيما خالف الحظ صاحبه الآخر، أي شوقي. ويعلّل طه حسين هذا بالقول إن مصطفى كمال ممدوح شوقي ليس خليفة، بل هو خارج على الخليفة، وممدوح أبي تمام، أي المعتصم خليفة، حقاً، وهذا من أغرب المفارقات. ويقول إن ممدوح شوقي لم يكن يحارب دفاعاً عن الدين، بل عن الوطن، وكان ضد الدين، أما المعتصم فقد حارب من أجل الدين، وذوداً عن حياضه، وهذه مفارقة ثانية. ويقول إن شوقي استخدم تشبيهه في مورد اليقين، فيما استخدم أبو تمام التشبيه في مورد

---

(١) حافظ وشوقي ص ٣٤.

(٢) الشوقيات ١/ ٦١.

الشك باستعماله أداة الشرط. أضف إلى ذلك أن أبا تمام أورد تشبيهه في بيتين اثنين موجزين رائعين آسرين، وأورد شوقي تشبيهه في عدة أبيات لم تغن عنه شيئاً.. ويمضي طه حسين في نقده لسائر أبيات قصيدة شوقي بالمقارنة مع قصيدة أبي تمام، ليخلص إلى القول: «إن في قصيدة أبي تمام من الشعر ما لاءم الذوق القديم، ويلائم الذوق الحديث، ويعجب به الشرقي والغربي معاً، لأنه الشعر في نفسه، فيه قبس من هذا الجمال الخالد الذي هو فوق الزمان والمكان والجنسيات»[١].

كما يخلص إلى القول، وهو قول لا يخلو من شدة على شوقي وقسوة في النقد: «إن ذوقنا القديم نفسه على تحرّجه لا يستطيع أن يسيغ قصيدة شوقي بعد أن أبى ذوقنا الحديث أن يسيغها، وهذه القصيدة أشبه بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي تلقى إليهم فيوفقون في الصورة، ويخطئون»[٢].

والمهم أن طه حسين في نقده، يظهر ناقداً ماهراً سباقاً إلى المعاني النقدية الكبار، وهو كما رأيت يعتمد في نقده على التحليل والشرح، والتفسير والمقابلة، والمقارنة، والاستنتاج.

ب ـ نقده لحافظ إبراهيم:

من نماذج النقد الأدبي التي عرض لها طه حسين، في كتابه «حافظ وشوقي» قصيدة لحافظ إبراهيم قالها بمناسبة زيارة الملك فؤاد لمدرسة فؤاد بقصر الزعفران في العباسية، وهي تبدأ بالقول:

أقصر الزعفران لأنت قصر خليق أن يتيه على النجوم
كلا عهديك للأجيال فخر وزهو للحديث وللقديم[٣]...

والمعروف عن طه حسين أنه كان على علاقة طيبة بحافظ إبراهيم، وكان يكن له التقدير والاحترام، ويثني على شاعريته وألمعيته، ويعده أحد أبرز أعلام الشعر المعاصرين.

---

(١) نفسه ص ٣٦.

(٢) حافظ وشوقي، ص ٣٨.

(٣) انظر القصيدة كاملة في: ديوان حافظ ١٠٦/١. شرح وتحقيق أحمد أمين. منشورات دمج. بيروت ١٩٦٩.

مع هذا فإنه لما قرأ قصيدته أعلاه، نفر أشد النفور، ونصح صاحبها أن لا يضيفها إلى ديوانه لأن فيها إساءة إلى شعره المتقن نظراً إلى ما فيها من عيوب، ومجافاة لأصول الشعر والفن والإبداع. لقد بحث طه حسين في القصيدة كلها فلم يجد شيئاً، وقرأ الأبيات جميعاً، بل سأل كل بيت فيها، بل كل شطر، بل كل كلمة، عن شيء، وعن جمال الشعر، وروعة الفن فلم يوفق إلى شيء[1]. صحيح أن حافظاً أتقن شعره، وعرف عنه الجودة والشاعرية، لكنه في هذه القصيدة، لم يعرف الإتقان، ولم يهتد إليه، وسبب ذلك في رأي طه حسين يعود إلى خلو القصيدة من المعنى الرائع، والتصوير الجميل. إنها عبارة عن لفظ مرصوف، وكلم منظوم، ومعانٍ مستهلكة مردّدة لطالما أتى مثلها الشعراء، وطرق من التعبير سئمها الناس ومجّها الذوق العام. لقد أكثر الشاعر، يقول طه حسين، من المبالغات فأساء أداءها، وأكثر من استخدام الألفاظ المتكلفة، أضف إلى ذلك أن قوافي القصيدة على جانب من التكلف بحيث تبدو وكأنها أنزلت في غير منازلها، وأكرهت على أن تستقر حيث لا تحب[2].

وبخصوص المبالغات التي أساء الشاعر استخدامها وأداءها يدل طه حسين على قوله:

أفقنا بعد نوم فوق نوم   على نوم كأصحاب الرقيم

فيعلق عليه بالقول: «فهل تجد جمالاً أو شعراً في كثرة هذا النوم؟ أليس يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً هو:

فما للنوى جذ النوى قطع النوى   كذاك النوى قطاعة لوصالي

سمع الأصمعي هذا البيت فقال: لو سلط الله على كل هذا النوى شاة شاة فأكلته. فماذا عسى أن نقول في نوم حافظ، وهل تجد لأصحاب الكهف هنا موضعاً يلائم القصيدة؟»[3].

ويورد طه حسين عدداً آخر من المبالغات السمجة في قصيدة حافظ ومنها قوله:

فيا مصر اسجدي لله شكراً   وتيهي واقعدي طرباً وقومي

إضافة إلى ذلك فإنه عاب على الشاعر ألفاظه المبتذلة، وقوافيه غير

---

(١) حافظ وشوقي ص ٨٠.   (٢) نفسه ص ٨١.   (٣) حافظ وشوقي ص ٨٢.

المستقرة، كما بينا من قبل، وإن من هذا القبيل قول الشاعر مخاطباً الملك فؤاداً:

رأى فيك المعزّ زمان أعلى ... قواعده على ظهر الأديم
فشرّفها بركبك وافتتحها ... وأسعدها بدستور تميم
فدار البرلمان أعزّ دار ... تشاد لطالب المجد الصميم
بها يتجمّل العرش المفدى ... وتحيا مصر في عيش رخيم

يعلق طه حسين على هذه القوافي السمجة، والألفاظ المبتذلة، والصور السقيمة فيقول: «المساجد لا ترفع إلا على ظهر الأرض، وكلمة «تميم» نابية في موضعها، وكذلك «صميم» و «رقيم». . .» الخ. .

والمهم أن طه حسين، ورغم صداقته لحافظ، لم يكن إلا جاداً في نقده لشعره، مبيناً عيوبه، متتبعاً سقطاته وزلاّته. . محللاً، معللاً، مستشهداً، مقارناً، في نهاية تحليله ونقده، بين حافظ وشوقي، وموازناً بينهما في الموضوع نفسه، إذ كان شوقي قد ألقى بالمناسبة عينها قصيدة، قابل طه حسين بينها وبين قصيدة حافظ، فوجد أن في أبيات شوقي المعاني القيمة، واللفظ الرشيق العذب، غير المتكلف، أما أبيات حافظ، فليس فيها شيء سوى تكلف اللفظ، والقوافي المنزلة في غير منازلها[1]. . .

قد يتوهم أحدنا أن طه حسين في نقده الأدبي، يظهر دائماً بمظهر الناقد الناقم الساخط الذي لا يهتم إلا بإظهار السيئات، وكشف السوءات والعورات في الأثر الأدبي، دونما مراعاة أو مجاملة لصاحب الأثر، وهذا ما تبيناه في النموذجين السابقين من شعر حافظ ولشوقي، لا صحة لهذا الوهم إطلاقاً، بل الصحة أن طه حسين ناقد يعنف حيث يجب العنف، وينصف حيث يجب النصف، مدفوعاً بملكته الخلاقة، وذوقه النقدي المبدع، القائم على الموضوعية، ونشدان الحقيقة، فهو يظهر الحسنات بمقدار ما يظهر السيئات، وهو يبرز مواطن الإبداع في الأثر الأدبي، بمقدار ما يبرز مواطن الضعف والقصور عن الإبداع. وخير مثال على ذلك موقفه النقدي من قصيدة شوقي التي تحمل عنواناً لها «توت عنخ آمون»، ومطلعها:

قفي يا أخت يوشع خبّرينا ... أحاديث القرون الأولينا[2]

---

(١) نفسه ص ٨٢.

(٢) انظر القصيدة كاملة في «الشوقيات» ١/ ٢٦١ ـ ٢٧٤.

وهي، فعلاً، من عيون الشعر العربي، يتحدث فيها شوقي عن عظمة مصر، وتاريخها المعرق في الحضارة والقدم.

يستهل طه حسين نقده لهذه القصيدة الرائعة، بالإعراب عن رؤيته للنقد، وموقفه منه عموماً، وأنه يؤثر النقد المنصف عن الحمد المسرف، وأنه إنما ينقد من أجل النقد، فهو لا يريد حمداً، ولا ذماً، وأن شوقي أتخم ثناءً وتقريظاً، ولكنه لم يتخم نقداً، وإن كان يعلم، أي طه حسين، أن شوقي يضيق، ذرعاً بالنقد والنقاد، ولا يجب إلا الثناء، وما شعره الذي يصدر عنه إلا تعبير عن حبه الشعر وترجمته لإحساسه وعاطفته وشعوره.

والمهم أن طه حسين، وبعد هذا الاستهلال، يشير إلى الوصف الذي وصفت به القصيدة على صفحات «الأهرام» بأنها درة الشعر والنظم، يشير إلى هذا الوصف، فيخفّف من غلوّه، ويكسر من حدته ليقول إن هذه القصيدة ليست كما وصفتها الأهرام، بل هي من أجود قصائد شوقي، وليست تخلو من الرديء، وإن له قصائد أحسن منها[1]. فأين هي مواقف الجودة، وأين مواقف الضعف؟ يقول طه حسين وقد توفر على شرح هذه القصيدة، وتحليلها، ونقدها النقد الجاد الموضوعي البناء، يقول إن مصدر الجودة فيها هو شيء واحد يتمثل بعدم تكلف شوقي في شعره، لا في اللفظ، ولا في المعنى، وبصدق الإحساس والشعور، والإعراب عن هذا الشعور وذاك الإحساس. لقد أحس شوقي، يقول طه حسين، في هذه القصيدة، بشيئين اثنين يشعر بهما كل مصري، أحدهما أن لمصر تاريخاً مجداً عظيماً، وثانيهما أن تاريخ مصر الحديث لا يعد شيئاً بإزاء تاريخها القديم، وهذا ما وفق شوقي في تبيانه وتوضيحه والإعراب عنه. إضافة إلى ذلك فإن الشاعر وفق بمطلع قصيدته مثلما وفق بغير المطلع. إنه يناجي الشمس ويسألها فيحسن التسآل والمناجاة، مثلما أحسنت الشمس الجواب، وأحسنت الإلهام. لقد أخذت الشمس، أو «أخت يوشع» كما سماها، تقص عليه أحاديث القرون، في لغة سهلة واضحة، وأسلوب ممتع مشوق جميل، فيه الرقة والعذوبة والإيحاء من غير سرف أو غلوّ، وما أحسن قولها وأفصح جوابها، ولولا خشونة هذا الانتقال الذي أراده الشاعر مدخلاً يدخل إليه إذ نجد فيه الصعوبة زادها رهقاً استخدامه أو قل إقحامه اسم «آمون»، وهو اسم أعجمي في صفحة عربية نقية، واستخدامه الفعل «نزعوا» بمعنى «أشبهوا»، وذلك في قوله مخاطباً الشمس:

---

(١) حافظ وشوقي ص ٧٢.

أأمّ الـمـالـكـيـن بـنـي أمـون		لـيـهـنـك أنـهـم نـزعـوا أمـونـا

ولا يقل استخدامه لفظ «المآمين» ولفظ «الدواهي» ولفظ «قط»، لا يقل سماجة وصعوبة وخشونة فيها كل المجافاة لجمال الشعر وصفائه، والألفاظ هذه وردت في البيت التالي:

ولـدت لـه الـمـآمـيـن الـدواهـي		ولـم تـلـدي لـه قـط الأمـيـنـا[1]

وبعد أن يثني طه حسين على سهولة لفظ شوقي، وعلى معناه المأنوس غير المبتذل، وإجادته اللفظ والمعنى في أكثر من بيت من أبيات القصيدة... وبعد أن يقف معجباً بإزاء البيت القائل:

وتـاج مـن فـرائـده ابـن سـيـتـى		ومـن خـرزاتـه خـوفـو ومـيـنـا[2]

إذ أثنى عليه كثيراً واصفاً إياه بنظم الخرز في العقد... وبعد أن يثني على اعتذار شوقي عن قدماء المصريين، ودفاعه عنهم، وعلى اعتذاره الآخر للّورد الإنكليزي كرنارفون، وإن انتقص استخدامه لهذا الاسم ووضعه موضع القافية...

وبعد أن يثني أيضاً على معاني شوقي المتمثلة بالدفاع عن المصريين، ورد تهمة الإنكليز، وبمناجاة فرعون، وبالحكمة، والموعظة، وبجمال النظم والنسق ينتهى طه حسين إلى القول: «ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه القطعة الصافية المتلالئة من قصيدة شوقي، هذه القطعة التي يتحدث فيها إلى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة العالية والموعظة الحسنة، ويضع أمامه الألغاز التي عجز العقل والوجدان عن حلها ألغاز الحياة والموت، والبعث والنشور، وألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس..»[3] والأبيات التي استوقفت طه حسين، وفيها يخاطب شوقي توت عنخ آتون هي:

تـعـال الـيـوم خـبّـرنـا أكـانـت		نـواك سـبـات يـوم أم سـنـيـنـا
وهـل تـفـنـى الـنـفـوس إذا أقـامـت		هـيـاكـلـهـا وتـبـلـى إن بـلـيـنـا
وهـل تـلـقـى الـمـهـيـمـن فـوق عـرش		ويـلـقـاه الـمـلا مـتـرحـلّـيـنـا

(١) حافظ وشوقي، ص ٧٤. والأمين الأخيرة، إشارة إلى الأمين، الخليفة العباسي، «المآمين» فهي جمع المأمون، أخي الأمين.

(٢) خوفو ومينا، اسما فرعونين من فراعنة مصر، وابن سيتي، هو رمسيس أشهر الفراعنة.

(٣) حافظ وشوقي، ص ٧٧.

يحب المرء نبش أخيه حيّاً ويـنبشه ولو في الهالكينا...

ج ـ نقده لأبي العلاء

ولأن يكون صدر القارىء ضاق ذرعاً بهذه النماذج الأدبية الوصفية النقدية لشعر المعاصرين وأدبهم، فإنا لنعرض عليه نموذجاً أخيراً اخترناه من أحد كتب طه حسين، واسمه «بين بين»، حول شعر شاعر فيلسوف قديم، هو أبو العلاء المعري، وفيه نقف عند فصل أدبي ممتع يحمل عنواناً له هو «حوار في الأدب».

في هذا الفصل يعرض لنا طه حسين ما دار بينه وبين صديق له، من حوار حول شعر أبي العلاء المعري وهو الشعر الذي اختلف فيه الناس فإذاهم فريقان: فريق يرى أن أبا العلاء شاعر، إلى جانب كونه رجل فلسفة وأخلاق وسياسة واجتماع، وفريق يرى فيه هذا كله باستثناء الشاعرية التي ما كان حظه منها إلا قليلاً. صحيح، في نظر هؤلاء، أن أبا العلاء قال الشعر، وهو من الكثرة والغزارة بمكان، إلا أنه لم يخلق للشعر كما خلق أبو تمام وأبو الطيب ومسلم بن الوليد، بل كان ناظماً أكثر منه شاعراً. إنه، أي أبو العلاء، وفي نظر الفريق الثاني، لم يسلك في الشعر طريقة واحدة، ولم يقصد به إلى غاية واحدة من غايات الفن، وإنما قصد إلى غايات مختلفة متنوعة، كما سلك طرقاً متمايزة متباينة. إنه يقول الشعر فاخراً وواصفاً ومادحاً وراثياً، كغيره من الشعراء، لكن يذهب فيه مذهب الفلاسفة، ويكثر فيه من الألغاز والرموز، ويسلك فيه طرقاً منها المستقيم البيّن، ومنها الملتوي الغامض، فيه الالتزام بعمود الشعر والخروج عليه، وفيه سهولة اللفظ، والوعورة، فيه الطبع، وفيه التكلف، وفيه فضلاً عن ذلك، جفاء اللفظ والقافية والمعاني، والتعقيد والالتواء. هذا ما استشعره أحد قرّاء شعر أبي العلاء لما راح يقرأ قصيدته التي قالها في بغداد، مصوراً فيها حاله وحنينه إلى المعرة، وهي تبدأ بالقول:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما لهنّ ومالي
سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه من هنّا وثمّ صوالي[1]

ويرد طه حسين على القارىء مبيناً فساد ما ذهب إليه من استشعار الضيق والبرم بأبيات القصيدة، بحجة أنها مصدر للحيرة والاضطراب، وبحجة ما فيها، في زعمه، من إغراب والتواء، وتكلف من الاستعارة والمجاز والطباق، وبحجة

---

(١) المعري، أبو العلاء: سقط الزند، ص ١٤٢. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت ١٩٦٥ وهنا، في البيت الثاني، مشددة هي: هنا، بدون تشديد.

أن الشاعر أطال الحديث عن الإبل، وأهوال الطريق. يرد عليه طه حسين، مفنداً زعمه، موضحاً له أن الشاعر حينما أطال الحديث عن الإبل والطريق فلأنه أراد أن يقر الطمأنينة في نفوس إخوانه من أهل الشام على أنه لم يزل عزيزاً لم يذلّ نفسه بالسؤال، ولم يستجد الخلفاء، وهو في بغداد، شأن الشعراء السائلين. ثم إن الشاعر في هذا، ليعرب عن شوقه وحنينه وشكواه، وكلها عواطف سامية، بعيدة من السخف والدناءة والصغائر؛ وإذا كان ثمة شكوى من جفاء الألفاظ وصعوبتها، وبعدها عن السهولة فإن مثل هذا الجفاء يتبدى للقارىء، وما هو بجفاء لفظ، إذ على القارىء أن يجدّ كما جدّ الشاعر، ويتعب كما تعب، ويشقى بالتماس الجمال كما شقي هو بعرض هذا الجمال وذلك، يقول طه حسين، «أحرى أن يجعلك شريك الشاعر في هذا الجهد الخصب الخالد الذي يبذله الشعراء وقراؤهم وسامعوهم ليصلوا إلى هذه الغاية العليا، وهي تصفية النفس، وتنقية الذوق، وترقية الطبع، وإصلاح الضمير»[1].

وأما بخصوص الملالة التي شعر بها القارىء وهو يتابع الأبيات التي يصف فيها أبو العلاء الإبل، فما هذه بملالة، بل هي روعة الوصف للحنين، حنين الإبل إلى ما ألفت من أرض الشام، وقد افتنّ أبو العلاء في تصوير هذا الحنين، وكأن الإبل في ترجّعها الحنين إلى الشام تتلو كتاباً منزلاً فيه حب الوطن وإيثاره على كل وطن آخر. . والحنين إلى الوطن، يقول طه حسين، خالد لا يدري أحد أحديث هو أم قديم. إن هذا الحنين، لكأنه أصوات في الثقيل الأول من ضروب الغناء، فيها إبطاء وأناة وتميّل، ولكأن الإبل تريد أن تطير إلى أوطانها لولا أن العقال يمنعها من الطيران، أضف إلى ذلك أن الشاعر، هو الذي أحسّ هذا كله، فأضفاه على الناقة، وهو الذي أدى ما أحسّ بالرمز الذي جعله وسيلة إلى خلق البيئة، وإنشاء الجوّ الشعري، حتى إذا بلغ من ذلك ما أراد، يقول طه حسين، «صرح عن نفسه في غير لبس ولا التواء ولا تردد ولا استحياء، فقال هٰذين البيتين اللذين ما أظنك تجادل في روعتهما التي تأتيهما من صدق العاطفة، قال:

ومن، بأبي، لي في جناح غمامة ... تشبهها في الجنح أمّ رئال
تهاداني الأرواح حتى تحطّني ... على يد ريح بالفرات شمال[2]

---

(١) حسين، طه: بين بين، ص ٤٠. ط ٨. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨.
(٢) بين بين، ص ٤١. وأم رئال: النعامة.

ويمضي طه حسين متابعاً تحليله لمعاني هذه القصيدة، مبيناً ما فيها من عناصر جمالية فنية وأسلوبية وعاطفية فيدافع عن تشبيه أبي العلاء جناح الغمامة بأمّ الرئال، وذلك لأنه أسلوب مألوف من أساليب القدماء حين كانوا يشبهون السحاب بالنعام، متجنبين التصريح، مكتفين بالتلميح الذي يعرب عن شوق الشاعر وحنينه، متمنياً لو أن غمامة تحمله أو تتهاداه الريح حتى تبلغ به شاطىء الفرات قريباً من حلب أو معرة النعمان. وإذا كان صاحب طه حسين ممن يألفون التصريح والوضوح، فإن طه حسين، ليوجهه إلى قراءة عدد من الأبيات التي فيها مثل هذا التصريح، وإن منها قول أبي العلاء:

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال[1]

وإن منها قوله:

دعا رجب جيش الغرام فأقبلت رعال ترودالهم بعد رعال[2]

أي أن الشاعر وصل إلى بغداد في جمادى الثانية.. وإن طه حسين ليوجه صاحبه المحب لمثل هذا الوضوح إلى قراءة قول أبي العلاء:

أإخواننا بين الفرات وجلّق يَد الله لا خبرّتكم بمحال
أنبئكم أنّي على العهد سالم ووجهي لمّا يبتذل بسؤال
وإني تيمّمت العراق لغير ما تيممّه غيلان عند بلال...[3]

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١. والكرخ، أحد قسمي بغداد.

(٢) بين بين ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢. وغيلان، اسم الشاعر ذي الرمّة. بلال، هو ابن أبي بردة ممدوح ذي الرمة.

الباب الثاني

طه حسين، ناقداً

ويتضمن أربعة فصول هي التالية:

- الفصل الأول: في السياسة
- الفصل الثاني: في الاجتماع والأخلاق
- الفصل الثالث: في الدين
- الفصل الرابع: في اللغة والأدب

مدخل

«قد تعودت دائماً أن أوثر سخط العقول على رضاها، وأن أحب لها القلق وأكره لها ما يمكن أن تضطر إليه من هذا الأمن المخيف الذي ينتهي بها إلى الفتور وإيثار الدعة والاطمئنان الذي يحبّب الراحة ويغريها بالكسل ويزين لها الاستسلام والتسليم أيضاً»[١].

بهذه العبارات كشف لنا طه حسين عن ميله إلى النقد، وحبه للنقد، وإذعانه لإعلان الخصومة، لأن الخصومة، كما يقول في غير موضع، هي قوام الحياة[٢]. وهي التي كانت وراء الإبداع في شتى المجالات الفكرية والسياسية والفلسفية والأدبية بنوع خاص، ولكن أية خصومة، وأي نقد؟ إنه النقد البناء القائم على احترام الرأي، وعلى إعمال الرأي بموضوعية وتجرّد؛ وإنها الخصومة بين الأدباء والشعراء، وهل كانت القرائح لتجود لولا تلك الخصومات.. هكذا كانت في العصر الأموي بين جرير والأخطل والفرزدق، وهكذا هي في عصر طه حسين، تارة بينه وبين الأزهر، وطوراً بينه وبين نظرائه من الكتاب والأدباء والشعراء. ويعترف طه حسين بخصوماته كلها التي كان منها خصومته مع العقاد، والرافعي، وتوفيق الحكيم، ومحمد حسين هيكل، والمازني، وغيرهم كثير، إلا أنها خصومة شريفة، لا تفسد للودّ قضية، ولا تسيء إلى الصداقة، أو تغضّ من الشخص الذي يخاصمه.

والجديد في موضوع النقد عند طه حسين، وكما سيتضح لك، أنه لم يكن وقفاً على الأدب والأدباء، فحسب، بل تعدى ذلك بكثير ليشمل السياسة، والأخلاق، والاجتماع، والدين.. ولا غرو، ألم يقل هو نفسه، كما ألمعنا من قبل، إنه يؤثر سخط العقول، ويحب لها القلق؟ هذا ما سوف نعرض له في الفصول الأربعة المكوّنة لهذا الباب الذي حمل عنواناً له: طه حسين، ناقداً.

---

(١) خصام ونقد، ص ٥٧.

(٢) نفسه ص ١٤٢.

في السياسة

أ ـ الاستعمار وسياسة التميز العنصري

مع حب طه حسين لثقافة الغرب وأدبه وحضارته، ومع إعجابه بأبطاله وعباقرته وأعلامه المتفوقين في مجال العلم والأدب والفلسفة والفن والاختراع. . ومع ثنائه على مفاهيم الديموقراطية، وإطرائه لأسلوب نظام الحكم القائم في أكثر من بلد أوروبي أو أميركي. . . مع هذا فإن لطه حسين، الأديب والعالم والمفكر، والإنسان، موقفاً سياسياً مغايراً كل المغايرة لموقفه من حضارة الغرب وتقدم علومه وتطور أساليب أنظمة حكمه. إن طٰه حسين ينتقد الغرب في سياسته الاستعمارية والتوسعية، وفي قهره الشعوب المستضعفة، وعدم إعطائه حريتها واستقلالها، واستغلاله خيراتها، ونهب ثرواتها، واستخدام سياسة التمييز العنصري ضد بعض الشعوب، لا لشيء، إلاّ لأنهم سود، وهو أبيض.

إن طه حسين ليستنكر ما تقوم به حكومة جنوبي أفريقيا، صنيعة الدولة البريطانية، بل صنيعة دول الغرب، من أعمال إجرامية، ومن ارتكاب جرائم، يندى لها الجبين، في حق السكان الأصليين من السود. ولم يُعف طه حسين هيئة الأمم من تلك الجريمة، إذ هي لا تعمل شيئاً من أجل حربة الشعوب المقهورة سوى إرسال البرقيات، وإصدار البيانات المستنكرة[١]. ويحمل طه حسين حكومات الكومنولث، وعلى رأسها بريطانيا، مسؤولية السكوت عما يقترفه البيض في حق السود بجنوب أفريقيا، كما يستنكر ما تقوم به بريطانيا من أعمال إجرامية في حق الشعب الكيني، والحكومة الفرنسية في حق الشعب الجزائري؛ ولم يفته التنديد بحلف الأطلسي، وفرنسا عضو في هذا الحلف الذي لا ينكر ما تفعله الدولة المنضوية تحت لوائه[٢].

(١) حسين، طه: كلمات ص ١٢٤ ط ٢، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧.

(٢) نفسه ص ١٢٥.

وينتقد طه حسين سياسة الغرب القائمة على الدهاء والخدعة والمكر وبذل الوعود، والكذب فيها، وهذا ما فعلته إبان الحربين الكونيتين الأولى والثانية حينما زيّنت للشعوب المقهورة، فكرة الحصول على حريتها، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ما طل الغرب وسوّف وما وفى بالوعد[١].

وأهم ما توصل إليه طٰه حسين في هذا المجال من الحقائق هو أن ليس هناك غناء في هيئة الأمم المتحدة، ولا في الأمم المتحضرة لترفع الظُلم عن الشعوب، أو لتقيم عدلاً. . إذن، فالبديل أن «ينتصف الضعيف لنفسه حين يستطيع دون أن يظلم أحداً. فالقوة التي تنفع الناس وتمكث في الأرض وتجعل أصحابها كراماً إنما هي القوة التي ترد عن نفسها الظلم دون أن تسلط الظلم على غيرها»[٢].

ويندد طه حسين بعجب الغرب وتيهه، وبظنونه الكاذبة وآماله الخائبة في الوصول إلى واحة السلام بعد الحرب الثانية، إذ أن الذين انتصروا فيها لا يأمن بعضهم بعضاً، بل هم يستبقون إلى القوة ويتنافسون في التفوق دونما اعتبار للشعوب المغلوبة، والأمم المستعبدة. ويندد بالقنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما معتبراً أن هذا السلاح إنما هو الطغيان عينه، والطغيان يغري أصحابه بأنهم السادة، وأن لهم الحق أن يفعلوا ما لا يجوز أن يفعل. ويخلص طٰه حسين إلى حقيقة أن الطغيان لا يسيء إلى الطغاة وحدهم، بل إلى الآمنين الوادعين أيضاً، «أولئك الذين لا يريدون علواً ولا تسلطاً وإنما يريدون أن يعيشوا أحراراً كراماً»[٣].

وينحي طه حسين باللائمة على الإنجليز الذين عملوا على إرجاع النفوذ التركي إلى مصر بعد أن كانت مصر دفعت بالأتراك إلى ما وراء الحدود السورية التركية، مستقلة بذاتها، سابقة إلى النهضة الداخلية الجدية تستأنف اتصالها بأوروبا، ولتنتفع بهذا الاتصال الذي يمكن الحضارة الإسلامية العربية من لقاء الحضارة الأوروبية. إنه ينحي على الإنجليز ومن معهم من الأوروبيين لأنهم هم الذين جعلوا تركيا تحكم مصر بصورة غير مباشرة، عن طريق أسرة محمد علي[٤]. وينتقد طه حسين سياسة الاستعمار البريطاني القائمة على القمع، قمع الحريات والثورات، وهذا ما تفعله في مصر، إذ هي تحمي الأمراء، وهؤلاء يحمون سياستها ومصالحها، لكن الشعب المصري اضطر إلى الثورة على

---

(١) كلمات ص ١٢٦.

(٢) نفسه ص ١٢٧.

(٣) كلمات ص ١١٦.

(٤) نفسه ص ٥٩.

الإنجليز، فانتصر عليهم وفرض عليهم إلغاء الحماية، وكان لانتفاضة الشعب المصري أثرها في العالم العربي، إذ انبرى السوريون واللبنانيون والعراقيون يقاومون الفرنسيين والإنجليز. ومثل هذا فعل الشعب الجزائري والتونسي والمغربي، فمنهم من تحرر، ومنهم من ما فتىء يثور ويعمل من أجل حريته واستقلاله[١].

وفي فصل مستقل حمل عنواناً له «أزمة الضمير العربي» يبين طه حسين واقع العرب، وأزمة الضمير العربي، محملاً الاستعمار مسؤولية هذا الواقع، معتبراً أن مصدر السخط، سخط الشعوب على حكامها، وطموحها وجهادها، إنما هو الاستعمار أولاً، والتخلف ثانياً[٢]. ويذهب طه حسين إلى أن الحرية والاستقلال اللذين تطمح إلى تحقيقهما الشعوب المستضعفة ليسا غاية إن لم تستأنف هذه الشعوب مسيرة الجهاد فتعمل على محو آثار الاستعمار في الداخل، وتعمل على تحقيق العدل والمساواة والرخاء عن طريق محاربة الفروق الهائلة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، وعن طريق جهاد «المستغلين الذي سلطهم الاستعمار على من دونهم من الناس واتخذهم أداة لتحقيق أغراضه»[٣]. ثم يخلص طه حسين إلى نتيجة مؤداها أن ثمة طورين في حياة الشعوب المستعمرة: «طور الجهاد للتخلص من سلطان الأجنبي، وطور الجهاد في سبيل الوصول إلى حياة كريمة قوامها العدل والمساواة واعتدال المزاج الاجتماعي بين أبناء الشعب بحيث تبرأ الحياة العامة من الأثرة واستغلال الأقوياء للضعفاء»[٤].

ب ـ الخروج على الديموقراطية:

الديموقراطية، هذا المصطلح السياسي الحديث الذي يعني فيما يعنيه النظام السياسي الذي يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه، وقوامه الحرية والمساواة، والمشاركة الجماعية في الحكم عن طريق التمثيل وإبداء الرأي، والمعارضة وغير ذلك.. هذه الديموقراطية، كانت موضع إعجاب طٰه حسين، يدعو إليها، وإلى ممارستها، والحفاظ عليها، والأخذ بها وتطبيقها في حياتنا السياسية والاجتماعية والفكرية، وكان يحاسب عل مخالفتها، وينتقد من لا يعمل بها أو بوحي منها، منطلقاً من مبدأ أن الشعوب العربية، والشعب المصري خاصة، لن تقوم له قائمة

---

(١) كلمات ص ٦١.
(٢) نفسه ص ٨٢.
(٣) كلمات ص ٨٤.
(٤) نفسه ص ٨٤.

إلا إذا أرسى حكامه قواعد الديموقراطية، وعملوا على إعزازها والترويج لها، ونشر مبادئها، واتخاذها شعاراً وأسلوباً وممارسة وتطبيقاً على أكثر من صعيد.

في فصل يحمل عنواناً له (ديموقراطية) ينتقد طه حسين جهل المجتمع المصري، وخصوصاً مجتمع الريف المصري، جهله معنى الديموقراطية، وأنه لا يعرف منها إلا الاسم فيروي لنا بأسلوب ساخر قصة أولئك الفلاحين البسطاء الذين أحجموا عن التصويت لأستاذ الجيل، أحمد لطفي السيد، وكان هذا قد رشح نفسه لأحد الانتخابات، وكان خصمه، وهو ثري جاهل، قد زعم للناخبين أن لطفي السيد رجل ديمقراطي، فلما سأله الناخبون عن الرجل الديموقراطي ما هو؟ قال: الذي يبيح للمرأة أن تعدّد أزواجها كما يباح للرجل أن يعدد زوجاته[1].

ومع أن طه حسين يشفق لحال هؤلاء الفلاحين البسطاء، بحجة أنهم جاهلون غير متعلمين، إلا أنه لا يشفق لحال أولئك المدنيين من سكان العاصمة والمدن والبلدان القريبة من المدن. الذين يسمعون بالديموقراطية ويرددونها مراراً، ويدّعونها، ويتغنّنون بها، لكنهم، للأسف، وعلى حد تعبير طه حسين «لا يحققون معناها على رغم الحياة النيابية التي عرفها المصريون منذ صدور الدستور في أعقاب الحرب العالمية الأولى»[2].

والمهم الذي يريد طه حسين أن يخلص له من وراء بحثه، هو أن المسؤولية، والتبعة كل التبعة إنما تقع على عاتق المسؤولين والحكام الذين لا يعملون على نشر مبادىء الديموقراطية، وعلى التعريف بها، وبحقائقها، عن طريق تعبئة طائفة من المثقفين الذي يحسنون العلم بالنظم السياسية على اختلافها، وبث هذه الطائفة في الأقاليم والمدن والقرى لتتحدث إلى الشعب مدنه وقراه عن هذه الديموقراطية التي يقوم عليها نظم الحكم بالاسم، لا بالفعل[3] ولا يكفي هذا في نظر طه حسين، بل هو ينتقد السياسة المتبعة في الانتخابات العامة، وفي انتخابات الأقاليم، لأنها في الغالب سياسة لا يتمثل بها الاختيار الحرّ والأمين، بل يتمثل بها الإكراه، والغش، والعبث بضمائر الناخبين.

والغاية القصوى التي يتوخى طه حسين الوصول إليها من وراء نقده هذا، بل الحقيقة الكبرى هي أن يفهم الحكام أن الديموقراطية ليست مباشرة الحكم، أو

---

(١) كلمات، ص ١٨.
(٢) نفسه ص ٢٠.
(٣) كلمات ص ٢١.

مباشرة المراقبة للحكام، أو إصدار القوانين التي تجري عليها أمور الحكم، وإنما حقيقة الديموقراطية الصحيحة، حسب تعبير طه حسين، وقوامها الذي لا وجود لها بدونه «هو تحقيق العدل السياسي من جهة، والعدل الاجتماعي من جهة أخرى، والمساواة في الحقوق والواجبات، من جهة ثالثة» والحرية الكاملة للفرد في حدود القوانين التي تكفل المصالح الحقيقية للوطن وأبنائه»[1].

أجل، العدل بنوعيه، والمساواة، والحرية، هي ذي أسس الديموقراطية الحق، وقواعدها التي بدونها لا ديموقراطية البتة.

وليس هذا فحسب، بل إن الديموقراطية الصحيحة، ومن وجهة نظر طه حسين هي تلك التي تكفل للشعب الحرية والقوت والأمن. . . وذلك لأن الفقير لا يملك حريته الكاملة إذ هو يحتاج إلى أن يتخلص من أثقال الفقر، والضغط بحكم الفقر والقهر. . والقوت الذي يجب أن تكفله الديموقراطية ليس معناه «أن الحكومة ملزمة أن تطعم الناس، وإنما معناه أن تكفل للأفراد حق السعي الحر في التماس القوت. . والأمن الذي يجب أن تكفله الديموقراطية، بحسب تعبير طه حسين «ليس معناه أن تكف الحكومة الأشرار عن البغي والعدوان فحسب، بل معناه أن تحمل الحكومة عبء الدفاع عن الوطن كاملاً حيث يأمن الفرد على حياته ومنافعه أمناً داخلياً وخارجياً في وقت واحد»[2].

أي استقلال، وأية ديموقراطية تلك التي يتحدثون عنها في مصر، والقلق يسود أوساط الناس عامة، والشعب لا يمارس أموره بنفسه، بل بواسطة ممثليه من النواب والشيوخ الذين لا يهتمون بالأمور العامة، بل هم يفرغون لأمورهم الخاصة، لا يحملون الأعباء كما ينبغي، همهم أن لا يتخلوا عن مناصبهم ومراكزهم، وهم جاثمون على صدر الشعب «كما يجثم الكابوس الثقيل الطويل»[3] الفساد الذي يحيط بالمرافق كلها، والقلق الذين يسيطر على المصريين، المصريين المحرومين من المشاركة في الحكم مشاركة عادلة فعلية حرّة. وما هذ كله إلا بفضل الأثرة التي تدفع بالمسؤولين والوزراء والنواب إلى القول الذي أهلك من كان قبلهم، وسوف يهلكهم هم أنفسهم، والقول هو: «لنعش نحن وليأتِ من بعدنا الطوفان»[4].

---

(١) كلمات ص ٢٣.

(٢) نفسه ص ٢٥.

(٣) بين بين ص ١٠٠.

(٤) نفسه ص ١٠١.

ج ـ جمود الدستور والقانون:

من أشد الآفات الاجتماعية والسياسية التي تسود المجتمع المصري آفة الاشتغال بالوسائل عن الغايات، وبالظواهر عن الحقائق، سواء منها ما يتصل بالحياة العامة وما يتصل بالحياة الخاصة، وسواء منها ما يتصل بالجد الذي يقصد به إلى الإنتاج، وما يتصل بالترفيه الذي يقصد به إلى الراحة والاستجمام. إن المصري عموماً، وكما يرى طه حسين، لا يأكل ليعيش، وإنما هو يعيش ليأكل، ولا يستريح لينتج، بل هو ينتج ليستريح، إن أتيح له شيء من الإنتاج. ليس هذا فحسب، بل هو لا يتعلم لينتفع بالعلم وينفع الآخرين، ولا يتخذ المنصب وسيلة إلى هذا النفع، بل هو يتعلم من أجل المنصب، والمنصب من أجل الراتب، والراتب لإعالة نفسه وأهله ولإنفاقه في الملاهي، وفي الانصراف إلى لغو الحديث وسخف القول[1].

ومصدر هذه العلة، أو الآفة، من وجهة نظر طه حسين، هو محاولة الإصلاحيين، ومنذ القرن التاسع عشر، التشبه بالأوروبيين، وما كان هذا التشبه إلا وسيلة لا غاية، بمعنى أنه اقتصر على المناداة بالحرية والاستقلال، وعلى محاكاة الأوروبيين، في إيجاد الدساتير والقوانين والأنظمة، ليس إلاّ، وليس المهم أن ينفذ الدستور، على وجهه، ولا أن تحترم الحريات التي نص عليها الدستور، إن من يتطلع إلى الحياة الدستورية في مصر، وإلى الحياة البرلمانية، كنصوص ونظريات، ليهوله هذه التقدم والتطور في محاكاة الدساتير الأوروبية، لكن هذا شيء، والواقع شيء آخر، النظرية شيء والتطبيق شيء آخر، فالمرافق مهملة، والمنافع مضيعة، والأخلاق فاسدة، والأرض محتلّة، والجاهلون هم الكثرة، والمرض متفشّ، والشقاء مستشرٍ، والبطالة تعم الأوساط كلها، كل هذا على الرغم من وجود الدستور، والوزارات، والنصوص القانونية التي تنتظم شؤون التعليم والجيش والشؤون الاجتماعية والصحية. فكأنما الذي يراد من هذه الوزارات، ومن الدستور، كما يقول طه حسين، هو «أن توجد لنستطيع أن نقول، وقد رفعنا الرؤوس، وشمخنا بالأنوف، ونظرنا إلى السماء، وأبينا أن ننظر إلى الأرض: إن مصر بلد حديث، فيه كل النظم التي تستمتع بها البلاد الحديثة»[2].
هذه هي مشكلة المصريين، وتلك هي مشكلة الأنظمة والدساتير، في أوروبا

---

(١) بين بين ص ١٠٤. (٢) نفسه ص ١٠٨.

يوجد أنظمة ودساتير، ولكنها أنظمة تطبق، ودساتير تحترم، وقوانين تمارس العدالة الاجتماعية بكل معنى الكلمة، فلا فقر، ولا مرض، ولا جهل، ولا قيود على الحريات؛ وفي مصر توجد أنظمة وقوانين ووزارات، ويوجد دستور، لكن يوجد الفقر والمرض والجهل، وتقمع الحرية، لا لشيء إلا لأننا ما زلنا ننظر إلى الوسائل على أنها وسائل، لا على أنها غايات[1].

د ـ فساد الحكم:

تحت عنوان «جوع وأحاديث» ينتقد طه حسين بأسلوب مباشر، حيناً، وغير مباشر حيناً آخر، الحكومة لإهمالها تحقيق أبسط حقوق الناس في الحصول على الأمن الاجتماعي والقومي والغذائي؛ ويصور في مقالته هذه الحالة التي عليها معظم الناس وهم يستمعون إلى الخطب الرنانة، والكلام المعسول يلقيه المسؤولون من نواب ووزراء، والشعب يصفّق مصدقاً وعود الحكومة، وهو يئن تحت سياط الجوع والحرمان والبؤس والجهل والعلة وتفشيّ الأمراض. ألقى رئيس الوزراء خطبة العرش في البرلمان فصور الحياة المصرية كأحسن ما يكون، وصور عمل الحكومة خير تصوير، فهي حكومة، في زعمه ساهرة على مصالح المواطنين، وصفق للرئيس النواب مؤيدين، وصفق الشعب لتصفيق ممثليه في البرلمان، وراح المترفون ينعمون بغير حساب، فيما آلاف المواطنين تئن من الجوع، ومئات منهم يموتون نتيجة الداء والوباء، وملايين من الناس في جهلهم يغطّون، وفقرهم وسوء حالهم وبؤسهم سادرون، يلتمسون القوت وإطعام العيال دون أن يجدوا ما يسعون إليه. كل هذا حدث ويحدث ورئيس الوزراء يخطب، والوزراء يصفقون، والنواب يصفقون.. يقول طه حسين: «في ذلك اليوم ـ يوم الجهاد ـ خطب الخطباء، وتكلم الزعماء، وذكرت الثورة، وأثني على الشهداء، وفي أثناء هذا كله كان الجيش البريطاني في أماكنه المقسومة له، لا يحتفل بعيد الجهاد، لأن الجهاد لم يرزأه فتيلا»[2]. ثم يعلق ساخراً قائلاً: «جوع وأحاديث، فنحن أفصح الناس كلاماً، وأرفع الناس صوتاً، وأبرع الناس في الحركات والتمثيل. ونحن مع ذلك مضرب المثل في البؤس، والجهل، والمرض والتهافت في الموت...»[3].

ويأخذ طٰه حسين على الدولة وجهاز الحكومة تقصيرها في تطبيق العدالة

---

(١) بين بين ص ١٠٩. (٢) بين بين ص ١٤٦. (٣) نفسه ص ١٤٧.

الاجتماعية، وفي حماية الملكية الأدبية خاصة، وفي إصلاح نظام الأسرة المصري، وعدم الملاءمة بينه وبين ما يلم بحياة المصريين من ألوان التطور ما يفسح مجالاً لاختلال التوازن بين أعضاء الأسرة، وبين الأسرة والبيئة الاجتماعية[١].

إنه يأخذ على وزارة الشؤون الاجتماعية تقصيرها في هذا المجال، ولا سيما في مجال ملاحظة الأسرة ومراقبتها وإحصائها وتسجيل ما يجب تسجيله من أجل استخلاص النتائج وإعلانها على الملأ، ليتعلم من أفراد الأسرة من يريد العلم، وليصلح من يريد الإصلاح، كما يأخذ عليها عدم اقتصادها في الإعلان، وتكليفها توفيق الحكيم إدارة هذا الإعلان، ولم يسلم من نقده أحمد أمين الذي اقترح افتتاح مدارس لتعليم الزوجات، فيبين طه حسين لزميله أن الفساد إنما يقع على الرجال قبل أن يقع على النساء، وأن «آثام الزوج وسيئاته أعظم وأضخم وأشد هولاً مما يمكن أن تؤخذ به المرأة»[٢]. إن يأخذ على الرجال إهمالهم المرأة بحجة الانصراف إلى تكاليف الحياة، وما هي بتكاليف الحياة بل انصراف إلى متاع الحياة وفضولها وسخافاتها. إنه نوع من التلهي تتلهّى به وزارة الشؤون الاجتماعية والقيّمون عليها الذين فاتهم أن إصلاح النفس، نفس المسؤول والقيم، والرجال عامة، هو إصلاح المرأة، كما فاتهم أن العدل الاجتماعي، والعدل وحده، هو قوام الإصلاح وسبيله، وغايته، بل هو كل شيء[٣].

وفيما يخص الملكية الأدبية العائدة للكتاب والشعراء والفلاسفة والفنانين والعلماء، والتي هي مظهر من الحياة العقلية، فإن طه حسين يتهم الحكومة والمسؤولين بالتقصير في حماية هذه الملكية، فلا وزراة العدل تقوم بهذا الواجب، ولا وزارة الداخلية، ولا المعارف، ولا الشؤون الاجتماعية، ولا رئيس الدولة الذي عليه وحده تقع المسؤولية، هو في وارد القيام بهذا الواجب المقدس. ويتساءل طه حسين عن بواعث هذا الإهمال لطبقة الأدباء فيما الدولة تحمي المحامين والصحافيين، فترعى شؤونهم، وتدبر أمورهم، باستثناء الأدباء الذين لا حماية لهم من القانون، ولا حماية لأدبهم من السارقين والمزوّرين والمعتدين على أدبهم. ويوضح طه حسين ما يسعى إلى تحقيقه إن كان ثمة عدالة

---

(١) من لغو الصيف ص ١٤٦ ط ٥. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨.

(٢) نفسه ص ١٥٥.

(٣) من لغو الصيف ص ١٥٨.

وعناية من قبل الدولة بشؤون الأدباء، وحرمة الأدب، يوضح هذا بمطالبة الدولة أن تصدر تشريعاً يكفل حقوق المؤلفين ويحميها من العبث، وأن تنشىء جماعة للأدباء معترفاً بها، وتكون لها رعاية مصالح المؤلفين وحمايتها من العبث أيضاً[1].

هـ ـ الإثراء غير المشروع:

ويحمل طٰه حسين بأسلوبه الساخر الناقد على بعض الوزراء الذين اتخذوا من الوزارة وسيلة للإثراء غير المشروع، ومن هؤلاء وزير المعارف الذي حُملت إليه التحف والهدايا، والمصنوعات من المدارس الصناعية، والدجاج والأوز والبط من المدارس الزراعية، ويتساءل طه حسين قائلاً: «وليت شعري أأنشئت مدارس الزراعة والصناعة لتصلح بيت الوزير، وما تملّك من أدوات الزرع، ولتذيق الوزير والذين يدعوهم إلى مائدته ما في الحياة من لذة وبهجة ونعيم أم أنشئت مدارس الصناعة والزراعة لتعلم المصريين كيف يصنعون ويزرعون، وكيف يتخذون الصناعة وسيلة، إلى ترقية الحضارة، واكتساب العيش، والتماس الحياة وليت شعري ماذا يقول لضمائرهم هؤلاء الذين طعموا على مائدة الوزير من ألوان الجبن والقشدة، وشربوا عند الوزير من ألوان الشراب، واستمتعوا على مائدة الوزير بلحم تلك الطير التي أهديت له إهداءً أو أخذت له أخذاً؟»[2] ويتابع طه حسين حملته الساخرة الناقدة الناقمة، فيتساءل عما إذا تحرك ضمير الوزير، وأنّبه على هذا الصنيع القائم على استغلال التعليم، وإفساد عقول الطلاب، وعقول المعلمين، وأخلاق الموظفين؟ كما يتساءل عن موقف وزير المال في هذا العبث المخزي بأموال الدولة، وعن موقف رئيس الوزراء ومجلس الوزراء ثم يقول: «أليس من سبيل إلى أن يسأل المسيء عما أساء، ويؤخذ المذنب بما أذنب، ويعاقب الآثم على ما قدمت يداه؟ أقضي على هذا البلد أن تقترف فيه الآثام سراً وجهراً، وتجترح فيه السيئات خفية وعلناً، وتهدر فيه القوانين، وتنتهك فيه الحرمات، ثم لا يسأل آثم عن إثمه، ولا يؤخذ مجرم بجريمته، وإنما يستمتع المسيء بمثل ما يستمتع به البريء؟»[3] وبعد أن يبين طه حسين أنه من المستحيل أن تستقيم للمصريين أخلاق إلا إذا عوقب المسيء، وسئل المجرم عن جريمته، وبعد أن يستفظع أشد الاستفظاع هذه المخزيات، ينتهي إلى القول: لن تستقيم لمصر أمورها حتى تنهى التقاليد وزير التقاليد، وأمثاله، عن استغلال المدارس لما

---

(١) نفسه ص ١٦٧. (٢) بين بين ص ١٦. (٣) نفسه ص ١٧.

لم تنشأ له المدارس، واستغلال السلطان لما لم ينشأ له السلطان.. وقد تنبأ أبو الطيب منذ ألف سنة بهذه الحال:

وكـم ذا بـمـصـر مـن الـمـضـحـكـات ولـكـنّـه ضـحـك كـالـبـكـا[1]

(١) بين بين ص ١٨، وانظر القصيدة التي أخذ منها هذا البيت، كاملة، وهي في هجاء كافور والمصريين، في: ديوان أبي الطيب المتنبي، ص ٣٠٤. شرح عبد الوهاب عزام. دار الزهراء بيروت.

(في الأخلاق والاجتماع)

أ ـ الغرور:

من أبرز مظاهر النقد الاجتماعي نقد طه حسين الساخر لأخلاق بعض الناس ممن يطلق عليهم اسم الطبقة الاجتماعية الممتازة. إنه ينتقد أخلاقهم عامة، وكبرهم وصلفهم وغرورهم خاصةً، كيف لا وحياة هؤلاء، كما يقول طه حسين أشبه ما يكون بكرة يتقاذفها نوعان من اللاعبين، في أكثر الأحيان: شياطين الجن، وشياطين الإنس.

أما شياطين الجن، وهم بطبيعة الحال، محجوبون عنّا غير مرئيين، فهم الذين يلقون الغرور في قلوب هذه الطبقة الاجتماعية ويشيعون في نفوسهم الكبرياء والصلف والتّيه؛ وأما شياطين الإنس، وهم بطبيعة الحال محسوسون مرئيّون، وإن تكلفوا الستر أحياناً، فهم الذين يستغلون ما تلقيه شياطين الجن في القلوب من الغرور والصلف، فيزينون لأصحاب هذه القلوب حسنات صلفهم وكبريائهم.

شياطين الجن يلقون في نفوس هؤلاء أنهم أذكى الناس، وأفضلهم، وأعقلهم، وأحقهم بالمكانة العالية، والمنزلة الرفيعة من المجتمع؛ ثم يأتي شياطين الإنس فيزيّنون لهم مثل هذا الشعور بالامتياز، وهؤلاء إما رجال أعمال، واقتصاد، وإما رجال سياسة أو أدب، كلهم وبحسب تعبير طه حسين «كرات بائسة تتقاذفها شياطين الجن والإنس بما تلقي إليها من زخرف القول وأحاديث الغرور»[1] . . ولو اطلعت هذه الكرات على الشياطين بنوعيها حين يخلو بعضهم إلى بعض، وحين تنفجر أفواههم البشعة عن ضحك مروع من هذه الكرات التي يعبثون بها، ساخرين منها، مزدرين لها، لجاز أن يثوب إلى هذه الكرات شيء من عقل، وفضل من رشد، وقليل من صواب، ولكن الشياطين لا يكتفون بهذا . .

(١) بين بين، ص ١٣٨.

وعلى هذا النحو. سعي الساعين بين رجال السياسة والأدب والمال والاقتصاد، وكيد الكائدين لهم، ومكر الماكرين بهم، وتحلق الذين يبتغون إليهم الوسيلة . . وأصحاب المال والسياسة والأدب يفرحون بهذا كله، وهم سادرون عن فهم الحقيقة، حقيقة أنفسهم، وحقيقة الناس . . فهل من أحد وحسب تعبير طه حسين «يبلغ المغرورين والمفتونين أن الأيام تقبل وتدبر، وأن الرجل الأديب الأريب، والحازم الرشيد، هو الذي يضنّ بنفسه على أن يكون كرة تتقاذفها وتعبث بها الشياطين؟»[1].

ب ـ الترف:

في فصل يحمل عنواناً له «طيف» من فصول كتابه القيم «بين بين» يحدثنا طه حسين عن ثلاثة من الأثرياء المترفين الذين اتخذوا من اللهو والمجون والسهر حتى مطلع الفجر في أحد المواخير، أي علب الليل، اتخذوا من اللهو ديدنا إذ هم يسهرون ويشربون ويلهون مع اللاهين، ويخوضون مع الخائضين، يراقصون بنات الهوى ولا يملّون حتى تأخذ الخمرة منهم كل مأخذ، فتلفظهم الدار، دار اللهو هذه، إلى خارجها، فيتلقاهم الخدم، وكل أمام سيارة سيده، فيحملونهم إلى بيوتهم متهالكين مخمورين، فيستسلمون إلى النوم ضحىً، وما يفيقون إلا عشاء، ليستأنفوا حياة اللهو والسكر والعبث والمجون من جديد. هكذا دأبهم، وهذا ديدنهم ما طلع صبح، وولّى نهار، وأقبل ليل، حتى كان يوم اجتمعوا فيه على ضريح الغانية التي كانت تراقصهم وتسقيهم من الخمرة وفتنة الجسد. والعجيب في الأمر أنهم اجتمعوا على غير ميعاد إذ كان كل منهم رأى الغانية في منامه وهي عاتبة عليه لعدم زيارتها في بيتها الجديد. وبصرف النظر عن صحة هذا الطيف أو المنام، أو عدم صحته، إذ ترك طه حسين لعلماء النفس، ودارسي الأحلام والباحثين فيها أن يتأوّلوه، فإن طه حسين ليزري بتلك الطبقة الاجتماعية من الباشوات والبكوات، وما أكثرهم في مصر إذ ذاك، والأثرياء الذين كان كل همهم السعي وراء اللذة، والعبث، والمجون. إنهم مترفو المال، مستحدثو النعمة، من الجهلاء، وإنهم وكما وصفهم طه حسين «أصحاب لذة غليظة جافية يشقون لينعموا، وينعمون ليشقوا، ويألمون ليلذوا، ويلذون ليألموا دون أن يوازنوا بين شقاء ونعيم، أو بين لذة وألم، قد دفعوا إلى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس، فهم مندفعون إلى الحياة لا يفكرون . . دفعهم إلى هذه الحياة المنكرة

---

(١) نفسه ص ١٤٠.

ثراء لم يجدوا في كسبه عناءً، وتربية لم تمنحهم أحلاماً راجحة، ولا بصائر نافذة. . .»[1].

ج ـ الحرمان:

ومن وحي أجواء الاحتفال بعيد وفاء النيل، وهو عيد قديم جداً دأب المصريون على الاحتفال به شكراً لله، وللنيل الذي يوفي لمصر وأهلها بالريّ والثراء من كل عام، يتساءل طٰه حسين قائلاً: «لقد وفى النيل للمصريين بالري والثراء، ولكن ما حظ المصريين من هذا الري؟ وما نصيب المصريين من هذا الثراء؟»[2] بهذا السؤال طرح طه حسين على بساط البحث مشكلة اجتماعية عميقة الجذور تطاول بنية المجتمع المصري الدنيا التي تشكل الكثرة الكاثرة من المصريين الذين لم يستمتعوا بريّ النيل وثرائه. إن الذين يستمتعون بهذا الري وذاك الثراء، يقول طه حسين، هم فئة قليلة جداً، من أصحاب الثروات والإقطاعات، وذوي المناصب العليا في الدولة، أما الأكثرون فهم الذين لا يشربون الماء صفواً عذباً، بل هم يشربونه حاملاً المرض إليهم والأذى والعناء، وهم الذين لا يستمتعون بثراء النيل، بل هم يصارعون الفقر والبؤس والحرمان، يصرعهم حيناً، ويصرعونه أحياناً قليلة. وفي الحالين فهم يحتفلون بالعيد، عيد وفاء النيل، لأنهم بسطاء مخلصون أوفياء للنيل، لكن وفاء النيل بالنسبة إليهم هو الكد والعناء، الكد الذي لا يعصم من جوع، والعناء الذي لا يعصم من حرمان، العناء الذي يستغله المترفون البطرون من أسياد الأراضي، وأصحاب البيارات والبساتين، والمعامل والمتاجر، وحملة الرتب العليا والنياشين. ومن المصادفات الغريبة أن يوم وفاء النيل يصادف يوم توقيع الحكومة المصرية على المعاهدة البريطانية، التي وعد فيها الإنجليز بالحرية والاستقلال. ويمضي عام، ويحلّ العيد، عيد الاستقلال المزعوم، فلا استقلال، ولا حرية . . إنه يوم ولا كالأيام، يوم، وكما يقول طٰه حسين، في ختام الفصل: «يمر وتتبعه أيام أخرى ليست خيراً منه، وعسى أن لا تكون شراً منه: نعيم قد قُسم للقلة، وبؤس قد فرض على الكثرة، وسلطان قد أتيح للقلة، وخضوع قد فرض على الكثرة . . والشمس تشرق باسمة، ساخرة، والليل يقبل عابساً مزدرياً، والأعلام تخفق، والشعب يعمل، والمتنبي وأمثاله يرسمون على ثغورهم هذه الابتسامة الحزينة الكئيبة المرة

---

(1) بين بين ص ٥٩.   (2) بين بين ص ٤٧.

ويسألون في صوت ساخر حزين:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد»[١]

د ـ الفساد الوظيفي

وثمة ظاهرة اجتماعية تشيع في الأوساط المصرية، هي ظاهرة فساد الموظفين، الذين يميلون مع أهواء رؤسائهم، فيعلمون ما يلائم أهواء هؤلاء، وما يخالفون به النظام والقانون، ويخوضون في أحاديث السياسة، ويتحزبون لهذا الحزب وذاك، على حساب الوظيفة والعمل، وعلى حساب المواطن الذي لا حول له ولا طول، وما عساه يفعل مع هذا الموظف الذي يحميه الوزير الفلاني، وذاك الموظف الذي يحميه الرئيس الفلاني؟[٢].

وثمة ظاهرة أخرى تسود أجواء الوظيفة، وتتمثل بالموظف الذي يخاصم من يخاصم رئيسه أو وزيره، ويوالي من يواليه، حتى أنه صار يرى ذلك واجباً عليه، وإلاّ تعرض للخطر إن خاصم ولياً للوزير، أو وفى لخصم من خصوم الوزير ما أفسد الصلات بين الناس، وأشاع الكذب والنفاق، وضيّع مصالح المواطنين. وعرّض للهدر كرامة الموظف، بحيث أصبح يشعر في قرارة نفسه أنه ملك أو عبد لهذا الرئيس، وموظف عند ذاك الوزير، وفاته أنه من قبل وبعد، هو موظف عند الدولة التي هي فوق الوزير والرئيس . . إنه الخوف الذي يرين على الموظفين، الخوف من غضب الرئيس، وهذا ما أفسد الأخلاق، وأفسد النظام والصلة بين المواطن والدولة[٣].

وثمة ظاهرة أخرى تسود أوساط الموظفين في بعض الدواوين، ومعاهد التعليم، هي شك الموظف في زميله، وإساءة ظن بعضهم ببعض، وتقرب بعضهم من عدد من المسؤولين والرؤساء، على حساب بعضهم الآخر، ما أدى إلى الريب وسوء الظن، والأثرة، وحب الذات، والخوف والاضطراب وعدم الاطمئنان، وفقدان الثقة والصراحة، وشيوع القلق والكذب، وخلق الإشاعات، وإذاعة المنكر من القول، وتحسين القبيح، وتشويه الحسن، والخوض في كل ما يحطّ أو يزري من الآخرين[٤]. ومردّ سبب هذا القلق، في رأي طه حسين، إلى فساد الحياة العامة، والضغط على الحريات العامة، وتهرب المسؤولين من تحمل

---

(١) نفسه ص ٥١.

(٢) بين بين ص ٩٣.

(٣) نفسه ص ٩٥.

(٤) بين بين ص ٧٨.

تبعات مسؤولياتهم بصدق وإخلاص وراحة ضمير[١].

هـ ـ الجهل:

ومن الظواهر التي انتقدها طه حسين، وهي ظاهرة اجتماعية كانت سائدة في عصره، هي جهل المصريين بأرضهم وتاريخهم وجغرافية بلادهم، ومعرفة خصائص حضارتهم، تلك الحضارة التي رفعت اسم مصر عالياً في البلدان، ومع ذلك فإن المصريين، في عامتهم، يكادون لا يفقهون من أمور بلادهم وتاريخهم وحضارتهم شيئاً، فهم متصاغرون متضائلون جاهلون، وإن أرادوا التماس تاريخهم التمسوه عند الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان[٢]. إن من الشواهد الدالة على جهلهم، جهلهم بأبسط الأشياء والبديهيات، كمثل جهلهم بقناة السويس، أو القناطر الخيرية، أو خزان أسوان، وجهلهم بالزراعة والعلم والسياسة. إن المصريين عامة، يجهلون من أمر مصر أكثر مما يعلمون، يرون مصر صغيرة، ويرون أنفسهم معها صغاراً، وهي كبيرة، ومن حقهم أن يكونوا كباراً معها. وأخطر ما في هذه الظاهرة، بحسب رأي طه حسين، أن جهل المصريين بشؤون بلادهم يجر إلى الآمال الصغار، خلافاً لما كانوا عليه في غابر الأزمان. إن المصريين عامة، وبحسب رأي طه حسين، لا يفكرون إلا في أنفسهم، و «لا ينظرون إلا إلى حياتهم البوهيمية الصغيرة الضيقة ذات الآفاق المحدودة فيصغر تفكيرهم كما صغرت حياتهم، وتصغر آمالهم، وإذا مصر التي يحيون فيها قد صغرت وتضاءلت لأنهم صغروا وتضاءلوا، وهانت على الناس لأنهم هانوا على أنفسهم»[٣]. إن معظم تفكير المصريين منصب على الأمور التافهة، وعلى حديث القطن وغير القطن. أما التعليم، وبذل المال من أجل التعليم والثقافة، فليس في نظر المسؤولين ضرورة ملحّة، بل هو وقف على طبقة المترفين والأغنياء. وينهي طه حسين فصله هذا فيقول من أسى وألم وحسرة: «كم أحب أن يشعر الشباب بأن وطنهم عظيم، وبأنه لا يسيغ من أبنائه أن يكونوا صغاراً، فإما أن يعظموا مثله، وإما أن يلتمسوا لأنفسهم مهاجراً في وطن من تلك الأوطان الصغار التي تقنع من أبنائها بصغر الأعمال والآمال»[٤].

و ـ فساد الذوق:

وثمة ظاهرة اجتماعية تعرف بالذوق الذي هو ملاك الحضارة المترفة،

---

(١) نفسه ص ٨١.

(٢) من لغو الصيف ص ١٠٤.

(٣) نفسه ص ١٠٣.

(٤) من لغو الصيف ص ١١١.

ويوجد في المدن أكثر مما يوجد في الريف، وهو يتغير قوة وضعفاً باختلاف الثقافة والحضارة، إنه يفسد بعد صلاح، ويقبح بعد حسن، وهو، على حد تعبير طه حسين «يشيع فساده وقبحه بمقدار ما يصيب الحضارة من ضعف وانحطاط»[١] ولقد كانت أذواق المصريين في أوائل القرن أميل إلى المحافظة والأخلاق، فلما هجمت الثقافة الأجنبية اضطربت العقول، واختلطت الأمور، وتأثرت به الأخلاق، فتغير الذوق. ولما أن جاءت الحرب الثانية تغير الذوق المصري تغيراً عنيفاً متأثراً بالعنصر الأميركي خاصة، والأوروبي عامة، وسبب اضطراباً خلقياً عنيفاً، عرّض مصر لخطر عظيم، فالأشياء تتغير، والشباب مستهتر لا يحفل بشيء، ولا يتحرج من شيء، ولا يتحفظ في قول أو عمل. حتى الصحافة أضحت مضطربة تخوض في ما يجب عدم الخوض فيه، أضحت تخوض في مسائل تجافي الخلق، والطبع، وصفاء النفس، ورقة الذوق، وما هذا كله إلا من أثر الحضارة الأميركية المادية التي غزت عقول الناس، ونفوسهم، وأفسدت أخلاق الناس الشباب خاصةً، ومن العجب أنك ترى هؤلاء يتهافتون على تلك المظاهر الحضارية الخلابة تهافتاً منقطع النظير، وهم لا يشعرون[٢].

---

(١) بين بين ص ٨٥.

(٢) نفسه ص ٨٨.

(في الدين)

طه حسين والأزهر:

لم يكن طٰه حسين أول متمرد أو ثائر، على الدين، لا كمعتقد، أو مبدأ، معاذ الله، لكن كأسلوب أو طريقة وممارسة تمثلت بسلوك بعض القيمين عليه، وجمود بعض مدّعيه المغرقين في السلفية والمعادين لروح التطور والعصر والثقافة والعلوم. لقد ثار من قبله أبو العلاء المعري، وفي عصره ثار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، تلميذه الأمين، اللذان رفعا الصوت عالياً في دفع الدين إلى الإمام، وبعث روح الحياة فيه لمواكبة أحداث العصر وتطوراته ومستجداته العلمية. إذن لم يثر طه حسين على الدين كعقيدة، وإنما ثار على بعض رجال الدين، وعلى الأسلوب المتبع في تعليم الدين، ونشر مبادئه وتبيان حقائقه.

منذ أن دخل طه حسين أروقة الأزهر، وتحلق مع أترابه حول مشايخه الذين كانوا يدرّسون العلوم الدينية، أحسّ في نفسه الرفض لعدد من هؤلاء المشايخ، أو الأساتذة الذين لم يكونوا، في نظره، جديرين بتدريس مبادىء الدين، وتوضيح قيمه، وإظهار خصائصه، وتبليغ رسالته، وأداء حقه تمام الأداء. لقد هاله سخف بعض العلماء وجهلهم، وكذبهم وادعاؤهم وغرورهم، وجمودهم، والطريقة التي يتبعونها في حلقات الدرس، مع تلاميذهم وطلابهم الذي ما حضروا الدرس إلا من أجل الاستفادة والنظر في أمور الدين على ضوء العقل، وهدي الفكر، والأخذ بأسباب العلم، والملاءمة بينها وبين النصوص الدينية التي يفترض فيها، أصلاً، عدم مجافاتها لمعطيات العلم، وروح العصر، ونزعة التطور والتجديد.

إن أول صدمة دينية صدمت طه حسين وهو على مقاعد الدرس في الأزهر، تبعية الأزهر لسياسة الدولة، وعدم استقلاليته، ونكوص المشرفين عليه عن اللحاق بركب العصر، وإدخال ما يجب إدخاله إلى مناهج التعليم، وأساليب التدريس. ولما أن حاول ذلك الشيخ محمد عبده، وكان شيخاً للأزهر، اضطره الخديوي عباس الثاني إلى الاستقالة، فاستقال وما تزحزح عن موقفه قيد أنملة

ذلك الموقف الداعي إلى إدخال علوم العصر إلى الأزهر، وتطويره في الشكل والأساس والمضمون. وماذا كانت النتيجة؟ فعل الخديوي فعلته، ولم يستنكر الأزهر هذا الفعل، ولم يتحرك الأساتذة والمشايخ، وآثروا الصمت، بل إن كثيرين منهم هلّلوا لهذا العمل، ونددوا بالشيخ بحجة أنه يدعو إلى الخروج على مبادىء الدين. ولما مات الشيخ الإمام سنة ١٩٠٥، لم يكترث بموته أحد من علماء الأزهر، وأظهر بعضهم الشماتة ما أثار حفيظة طه حسين، ومعه نفر من زملائه المعجبين بفكر الشيخ ونزعته الإصلاحية الداعية إلى تطوير الأزهر وجعله مؤسسة تعليمية دينية ودنيوية معاً، تواكب روح العصر، وتستجيب لنداء العقل، ومنجزات العلوم الإنسانية وغير الإنسانية. تلك كانت أولى ملامح ثورة طٰه حسين على الأزهر، ورجال الأزهر، وإن كان سبقها ثورته على الشيخ الذي كان يدرسه النحو، فلما اعترض طه حسين على بعض المسائل، وكان الحق بجانبه، غضب الشيخ، وندّد به وبزملائه «المشاغبين» فكان نصيب التلميذ، ومعه زملاء الصف جميعاً، الطرد والحرمان من الفصل[1].

ومن أشهر مواقف طه حسين الانتقادية للأزهر، موقفه من طرق التدريس المتبعة في هذا الصرح العلمي، والثورة عليها، داعياً إلى تطويرها وتجديدها قياساً على ما يحصل في المعاهد العلمية الراقية في بلاد الغرب، كان هذا لما رجع طه حسين من فرنسا سنة ١٩١٥، فحضر دروس الشيخ المهدي بالأزهر، فانتقد طريقته المتبعة في التدريس، بل انتقد الكثير من الطرق التي يتبعها أساتذة الأزهر واصفاً إياها بالعقم والجمود. ليس هذا، فحسب، بل انتقد الشيخ المهدي، ومشايخ الأزهر الذين أنكروا على طه حسين دفاعه عن السفور ما أثار ضجة واسعة النطاق في الأوساط الدينية المحافظة، وفي الألأساط الاجتماعية المتحررة، انتهت باتخاذ المسؤولين قراراً بحرمان طٰه حسين من المنحة المعطاة له لمتابعة تخصصه العلمي في فرنسا، وما استعاد المنحة إلا بعد أن تدخل السلطان حسين كامل، فوضع حداً لهذا الجدل الذي دار على صفحات الجرائد والمجلات[2].

على أن أهم معارك طه حسين الدينية، وأعظم انتقاداته تلك التي وجهها

---

(١) عمر، نجاح: طه حسين: أيام ومعارك، ص ٢٥. المكتبة العصرية، صيدا وبيروت.
(٢) مذكرات طٰه حسين ص ١٦٥.

لشيخ الأزهر، وللنفر الذين وقفوا معه في وجه طه حسين لما أصدر كتابه «في الشعر الجاهلي»، ما أثار حفيظة رجال الدين فاتهموه بالكفر والزندقة والإلحاد، والعمل على التشكيك في القرآن، عن طريق الشك في صحة الشعر الجاهلي، وكنا عرضنا لجانب من هذه المعركة لدى حديثنا عن أدب طه حسين، وقد حفلت الصحف بأخبار تلك الانتقادات، والاتهامات المتبادلة بين الأزهر وطه حسين الذي اتهم شيوخه بالمروق من الدين، والجهل بأحكامه، والعمل بنواهي الشرع، لا بأوامره، وإلاّ كيف نفسر سكوتهم عن استشراء ظاهرة الربا والقرض والاقتراض من المصارف المخالفة للإسلام؟[1].

ولم يكن طه حسين وحده في تلك المعارك، وقد شاركه في ثورته على جمود الأزهر، طائفة من التنويريين الذي حذوا حذو جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبدة، ومنهم عبد العزيز جاويش، وهو أحد الشيوخ الذين ناوئوا رجال الدين في الأزهر، وعابوا عليهم جمودهم، وغلبة التقليد على تفكيرهم، ودعوا إلى الثورة على أساليبهم وطرقهم، ولما خرج عبد العزيز جاويش من السجن سنة ١٩٠٩ امتدحه طٰه حسين بقصيدة بدأها بالقول:

الآن حـــقّ لـــك الـــثـــنـــاء	فـلـتـحـي ولـتـحـي الـلـواء
ولـتـحـي مـصـر وأهـلـهـا	شـاء الـعـدى أو لـم يـشـاءوا[2]

أجل كان طٰه حسين ينتقد الأزهر، وسياسة الأزهر التعليمية، ويدعو إلى إصلاح مناهجه، وإدخال المواد العلمية العصرية على اختلافها إليه، وإلى استبدال العديد من أساتذته التقليديين بأساتذة مثقفين تحرريين تنويريين يعملون على تطوير مناهجه، وجعلها ملائمة لروح العصر ومنطق العلم، وعلى الملاءمة بين الدين والحياة، وبين الرواية والدراية، والنقل والعقل، والاجتهاد والنص . . وكان أكثر ما يضيق به طه حسين أسلوب أولئك الأساتذة والمشايخ الذين يتشادقون في كلامهم ويتعقرون، ويتفيهقون للدلالة على براعتهم اللغوية، وطول نفسهم الخطابي ما يبعث في النفس السأم والملالة، ويثير النفور والاشمئزاز، ويذكر لنا طه حسين بعضاً من ذكرياته مع أمثال أولئك الأساتذة والمشايخ فيحدثنا عن واحد

(١) طٰه حسين وزوال المجتمع التقليدي ص ٥٨.

(٢) مذكرات طٰه حسين ص ١٩. واللواء، هي جريدة حزب الوفد التي كان ينشر فيها طٰه حسين بعض مقالاته الانتقادية وغير الانتقادية.

منهم كان يقول في كل شيء دون أن يفهموا عنه شيئاً، وكان يمتدح فيقول إنه يستطيع أن يتكلم ساعتين دون أن يفهم عنه التلاميذ شيئاً، ودون أن يفهم هو عن نفسه شيئاً، وكان يقول إنه يرى ذلك نعمة أسبغها الله عليه وفضلاً اختصه الله به. وكان كلما قال شيئاً أكثر القول فيه، دونما فهم أو إدراك لما يقول، حتى إذا ما أحسّ من تلاميذه القصور والعجز عن اتباعه، ويجب تعبير طه حسين، «أغرق في القول وتأنق في التعبير، وعابنا بالغباء، ودعانا بأسماء الحيوان، لا يتردد في شيء من ذلك، ولا يصطنع فيه تعطفاً ولا احتشاماً»[1].

ب ـ بين التقليد والاجتهاد:

اجتهد أحد علماء الأزهر في تفسير عدد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، معتقداً أن الإسلام لا يأخذ المرء بالمشقة والعنف، وإنما يأخذه باللين والرفق، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، فلا بأس في من وجد في نفسه عدم القدرة على الصيام، من أن يفطر طالما هو لا يريد الإفطار من أجل الإفطار، وطالما هو لم يعتد على حقوق الآخرين، فقامت قيامة الأزهر على هذا الشيخ واتهموه بالمروق والخروج على الدين، وبمخالفة ما جاء به المجتهدون الأربعة من أصحاب المذاهب المعروفة. يقف طه حسين من هذه الواقعة موقف الناقد المندّد بسياسة الجمود التي تسيطر على الأزهر، وأذهان الأزهريين التقليديين الذين يأبون على أنفسهم الاجتهاد، ويكتفون بتقليد واحد من الأئمة الأربعة خوفاً من الزلل، وإيثاراً للعافية. ينعى طه حسين على هؤلاء أن يأخذوا الآخرين بما أخذوا هم أنفسهم فيه. إن من حق هذا الرجل، يقول طه حسين، الاجتهاد كما اجتهد الأئمة الأربعة، فإن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران، كل ما في الأمر، يقول طه حسين، هو أن من حق العلماء أن يبينوا له خطأه وأن يدلّوه على الصواب، فإما «أن يحاكموه أو يؤدبوه أو يقدموه إلى القضاء ليفرق بينه وبين أهله فذلك شيء لا يبيحه لهم الإسلام، وهم إن فعلوه يعطون أنفسهم حقاً لم يعطه الله لهم، فهم يتجاوزون حدودهم ويظلمون هذا الأستاذ وينتحلون لأنفسهم ما لا يملكون»[2].

ويشتدّ طه حسين في حملته على القيمين على الأزهر معتبراً أن محاكمة هذا الأستاذ الذي اجتهد في رأيه، إسراف وانحراف عن أصول الإسلام وسنته

---

(١) خصام ونقد ص ١٩٦.

(٢) حسين، طه: نقد وإصلاح ص ٢٢٩. ط ٤ دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٧.

السمحة، إذ ليس لعلماء الإسلام حق في محاكمة المسلم أو عقابه لأنه اجتهد فأخطأ أو أصاب. الإسلام، يقول طه حسين «لا يعرف الإكليروس، ولا يعرف هذه السلطة الدينية العليا التي يستأثر بها فريق من رجال الدين»[1].

ويستعرض طه حسين الحقبة التي مرّ بها الأزهر فيشير إلى أنه كان أبداً منارة للعلم ولحرية الرأي والتعبير، فكيف به الآن يخرج على هذا السمت فيجور ويظلم الآخرين؟ إن حرية الرأي محترمة في الدين، ولم يعرف الدين في حياته محاكم للتفتيش، حتى في عهد المهدي وتتبعه الزنادقة، وفي عهد المأمون وملاحقته القائلين بخلق القرآن، ما أحد دعا إلى إنشاء المحاكم التي تحكم على رجال الدين بالمسروق والكفر لعلّة أنهم اجتهدوا فأخطأوا.

لقد اختلف علماء الإسلام في تاريخهم الطويل، ولكن أحداً منهم لم يقدم إلى المحاكمة، ولم يفرض عليه عقاب شديد أو يسير؛ ورغم تباين الرأي في الفقه والكلام والتفسير فما عرف في تاريخ الإسلام أن حوكم فقيه أو متكلم على رأي له في الفقه أو الكلام، وأن يكون الذين يحاكمونه من الفقهاء أو المتكلمين، فذلك شيء يقول طه حسين، «لا يعرفه المسلمون إلا منذ أنشئت في مصر هيئة كبار العلماء»[2]. ثم إن طه حسين يبين للأزهر ولهيئة العلماء هذه، المزعومة، يبين لهم أن في التراث الإسلامي وفي كتب المسلمين مثل هذه الآراء التي ذهب إليها الأستاذ الأزهري، صاحب الرأي، وأن هذا الرأي ليس بجديد، لقد قال مثله كل من الزمخشري، في تفسيره، وابن حزم في مفصله، ولم تثر ثائرة علماء الدين، فلماذا يتأخر الأزهر، بدلاً من التقدم، ولماذا هذا العسف والجهل، هذا ما ينبغي للأزهر ولعلماء الأزهر أن يعملوا على التخلص منه[3].

ولم تنفع دعوة طه حسين، ولم يجد وعظه ونصحه علماء الأزهر إلى رفع المحاكمة عن الأستاذ المستنير الرأي، فكانت المحاكمة، ولم يحفل الأزهر بطبيعة العصر الذي يعيش فيه، ولم تجد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية طريقها إلى قلوب الشيوخ فيعملوا على أخذ الأستاذ بالعفو والرحمة، بل ركب الأزهر رأسه، دونما اعتبار لحرية رأي أو اجتهاد أو دين. يقول طه حسين وقد استفظع ما أقدم عليه الأزهر: «سيفكر الأزهريون إذن في سطوة الناس قبل أن يفكروا في سطوة الله، وفي عقاب الناس وثوابهم قبل أن يفكروا في ثواب الله وعقابه،

---

(١) نفسه ص ٢٢٩.	(٢) نقد وإصلاح ص ٢٣١.	(٣) نفسه ص ٢٣٢.

وسيتحرّون رضى الشيوخ قبل أن يتحروا رضى أنفسهم وضمائرهم وعقولهم . . قدوة سيئة كنا نتمنى أن يكون الأزهر آخر من يقدمها إلى الناس، ومع ذلك فقد كان ما أراد الأزهر أن يكون وحوكم أستاذ من أساتذته، وعوقب، لا لأنه خالف عن قانون من قوانين الأزهر، ولا لأنه خالف عن نص من نصوص القرآن، ولكن لأنه حاول أن ينصح الإسلام والمسلمين فأخطأ طريق الصواب فيما رأى شيوخ الأزهر، ووقع كل هذا في القرن العشرين، وفي عهد يعتقد المصريون فيه أنهم قد تخففوا من أثقال الماضي وأوزاره، وتحرروا من قيود الماضي وأغلاله . . . والشر العظيم بعد هذا كله هو أن الأزهر يتلقى ألوفاً من الطلاب يلتحقون به . . ويتأثرون فيه بهذه التقاليد التي لا تلائم العصر الذي يعيشون فيه، ولا تلائم الصريح الصحيح من دين الله، كما أنزله في كتابه العزيز، وكما فصله في لسان نبيه الكريم وسيرته»[١].

ويحذر طه حسين المسؤولين قائلاً: «إما أن تسلك الجامعات والمعاهد العلمية سبيل الأزهر فتعاقب على الخطأ وتثيب على التقليد، وإما أن يسلك الأزهر سبيل الجامعات وسبيل المسلمين الأولين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فيبيح لرجاله وأبنائه أن يكونوا أحراراً كراماً . . . ليصدقني رجال الأزهر أن قصتهم هذه فتنة نرجو أن يقي الله المسلمين شرها، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أعيد النظر في قوانين الأزهر وحرّم عليه تحريماً أن يعاقب الناس على الخطأ في الرأي . . »[٢] ويمضي في حملته داعياً إلى إصلاح التعليم وإلى إصلاح القضاء المدني لأنه إليه يعود حق المحاكمة. . وتنجح دعوة طه حسين، فيتوحد التعليم الابتدائي والثانوي، ويتوحد القضاء، ويدخل التطور إلى أنظمة الأزهر، ومناهجه، فتدرس العلوم الدينية بجانب العلوم العصرية، ولكن العقلية المحافظة المتزمة لا تزال هي المسيطرة، على أن مثل هذا العمل والنجاح فيه يحتاج إلى كثير من الجهد والعناء. .[٣].

وختاماً، فلا يتوهمنّ أحد أن طٰه حسين كان معادياً للدين، أو متنكراً له، بل كان يدعو إلى الإصلاح الديني عن طريق إصلاح رجل الدين، وتسليحه بالعلم والثقافة، العلم بالأصول الإسلامية وبالتراث القديم والثقافة المنفتحة على الغرب، ليكون على مستوى مواجهة التيارات الفكرية والسياسية والمادية. صحيح أن طه

---

(١) نقد وإصلاح ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦. (٢) نفسه ص ٢٤٠. (٣) نقد وإصلاح ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥.

حسين وجد ما يشبه الخصومة بين العلم والدين، وذلك لأن الدين يرى لنفسه الاستقرار والثبات، والعلم يرى لنفسه التغير والتجدد. صحيح أن الخصومخة بينهما أساسية وجوهرية، ولا بد منها، ولكن المسألة وكما يرى طه حسين، وهذا ما أشار إليه في كتابه «من بعيد» المسألة في حقيقة الأمر لا تكمن في أن الخصومة بينهما واقعة أو غير واقعة، وإنما هي في أن الخصومة ضارة أو نافعة، وبعبارة أدق، فإن المسألة هي أن نعرف هل كتب على الإنسانية أن تسعد بالعلم والدين؟.

أما نحن، يقول طه حسين «فنعتقد أن الإنسانية تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعاً»[1].

---

(١) حسين، طه: من بعيد، ص ٨٥. ط القاهرة ١٩٣٥.

(في اللغة والأدب)

أ ـ بين الفصحى والعامية:

يرى طه حسين في اللغة العربية مظهراً من مظاهر الرقي والتقدم، ويؤكد على ضرورة أن تستجيب لأصحابها، وتساير تطور الحياة في ظروفها المختلفة، وهذا ما فعلته قديماً حينما خرجت من الجزيرة العربية فلاءمت الحضارة الحديثة، ووسعت العلوم والفلسفة، فضلاً عن اتساعها للآداب الجديدة. وفي الحقبة الزمنية المتقدمة التي عاشها طه حسين لاحظ أن ثمة اضطراباً أدبياً راح يظهر في صور متناقضة أشد التناقض، تعكسه الآثار الأدبية بأقلام شابة ما ينذر بالخطر الكبير. لاحظ طه حسين أن آثار كثيرين من الأدباء الشباب تشبه الفسيفساء الجميلة في الأزياء الرثة المهلهلة التي تشوّه براعة هذا الجمال، وتفسد سحره. ليس هذا فحسب، بل إن هؤلاء الأدباء يتكلفون الغضّ من الذين سبقوهم، ومن اللغة العربية بتهمة أنها صارت عقيماً، بل هي آخذة في الإشراف على الموت، ويقصدون باللغة العربية فصحاها، لا عاميتها.

يرد طه حسين على هؤلاء منتقداً مبيناً لهم عدم صحة مذهبهم، بل العكس هو الصحيح، فاللغة العربية الفصحى ما زالت حية ترزق، قادرة على مغالبة الأحداث والخطوب[1]. كذلك ينتقد طه حسين جماعة الأدباء الذين يرون أن العربية الفصحى لا تستقيم إلا إذا اتخذت شكلها القديم المألوف في شعر القدماء ونثرهم أثناء القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى للهجرة، متجاهلين ما يعرف بقانون التطور، غافلين عن سنن الإحياء والتقدم، فاللغة كائن حي متطور، لا يجمد عند حدّ محدود، فلغة الإسلاميين غير لغة الجاهليين، ولغة العباسيين غير لغة الإسلاميين، ولغتنا اليوم غير تلك . . اللغة حية إذن ومتطورة، وليست بجامدة[2].

وينتقد طه حسين أولئك الداعين إلى إحلال اللهجة العامية محلّ اللغة

---

(١) خصام ونقد ص ١٨٨.

(٢) نفسه ص ١٨٩.

الفصحى بحجة أن اللغات الأروبية الحديثة إن هي إلاّ لهجات عامية في الأصل تفرعت من اللغة اللاتينية الأم، وهذه ماتت منذ زمن بعيد، يرد على هؤلاء بالقول إن اللغة اللاتينية لـم تمت لأن أبناءها الشبان قضوا عليها الموت، وقرروا إقامة اللهجات العامية مقامها، وإنما ماتت اللغة اللاتينية لأنها مرت بخطوب طوال قضت عليها، أما لغتنا العربية الفصحى فمرّت بتلك الخطوب لكن انتصرت عليها، ودليل ذلك أنها ما زالت حية نامية متطورة فيما اللغات أو اللهجات العامية ضعيفة بإزائها لا تقوى على مناهضتها، ولا تصلح لأداء شعري أو نثري خالد[1].

إن مثل هذه المقولات التي يلهج بها الشبان من الأدباء لمن السخف بمكان، ولهي تعبر عن اضطراب ما بعده اضطراب، ومن كسل وفتور همة يميت القلوب. إن خيراً من هذا كله، في رأي طه حسين، «أن نستقبل أمور اللغة العربية الفصحى ومشكلاتها كما نستقبل غيرها من المشكلات والأمور، فنلتمس لها ما يلائمها من الحلول، ولا نستيئس من الظفر بهذه الحلول»[2].

ويردّ طٰه حسين على دعاة تيسير اللغة كتابة وقراءة ونحواً بحجة أن عامة الشعب لا تحسن الفهم، فيقول إن الأصل أن يكتب الناس أولاً، ويقرأوا، وأن يفهموا بعد ذلك، لكن بعد تيسير اللغة والنحو بشكل يلائم تطور العقل والفكر. إن إصلاح الكتابة العربية، يقول طه حسين، وتيسير النحو العربي «كفيلان بإراحة الجيل الناشيء من هذا العناء الذي ينوء به الكتاب المعاصرون الذين تعلموا العربية في أساليب لا تلائم عقولهم وأمزجتهم فلم يحسنوها ولم يطمئنوا إليها»[3]. إن من أخطر الأخطار، في مفهوم طٰه حسين، الترويج لهذه الدعوة المشبوهة المتمثلة بالكتابة العامية، ما يمنع التواصل بين الأقطار العربية، ويؤدي بنا إلى التباعد والتدابر، بدلاً من التقارب والتفاهم القائم على أساس الفصحى التي تجمع بين جميع الأقطار العربية، ويفهمها السوري والمصري والمغربي والمشرقي. ويخلص طه حسين، من بعد هذا إلى القول: «أما أنا فأوثر وحدة اللغة، وأثق الثقة كلها بأن للعربية الفصحى النصر آخر الأمر، وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه حقيقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها وأن يضحّوا في سبيلها بكل ما يملكون»[4]. ويرد طه حسين سبب تذمر الشبان، ونفورهم من اللغة

---

(١) خصام ونقد ص ١٩٠.
(٢) خصام ونقد ص ١٩٠.
(٣) نفسه ص ١٩٣.
(٤) خصام ونقد ص ١٩٤.

الفصحى إلى كونهم لم يتعلموها كما ينبغي أن يتعلموها، وإلى استخدام اللهجة العامية في تدريس العديد من المواد العلمية وغير العلمية، فإذا أتيح للتعليم ما ينبغي له من الإصلاح، والعمل على فهم التلميذ من أستاذه حق الفهم، لما كان هذا الذي يتذمر أو ينفر منه شبان اليوم[١].

ب ـ جهل الأدباء:

الصراع بين القديم والحديث صراع قديم، وكل عصر من العصور يشهد مثل هذا الصراع.. وفي غمرة الصراع الذي كان قائماً في حياة طه حسين، ومن الناحية الأدبية، فإن أديبنا الفذ، وكاتبنا الملهم، يأخذ على الجيل الناشىء من الأدباء كسلهم وقصورهم أو تقصيرهم عن المضي في العلم بالحضارة إلى أقصى غاية تبعده عن الجهل؛ إنه يأخذ عليهم عدم تكوين أنفسهم وذواتهم الأدبية بالجد والكد، وبالعلم الواسع العميق بحقائق الآداب الأجنبية، فضلاً عن الأخذ بحقائق الأدب العربي على اختلاف عصوره وتنوع مذاهبه[٢]. فالأديب الأريب، في نظر طه حسين، ليس هو الذي يملأ فاه بكلمة الشخصية ومعرفة النفس، بل هو الذي يسلك سبيل تحقيق هذه الشخصية التي لا تتحقق إلاّ بإتقان الأديب لغته القومية وآدابها إتقاناً جيداً، وإتقان العلم بالحياة المعاصرة، والإلمام بأحداث الأدب القومي وغير القومي، والعربي وغير العربي، والترفع عن الكتابة باللغة العربية غير المستقيمة[٣]. وللدلالة على ما ذهب إليه طه حسين فإنه يعرض لنا حال ذلك الكاتب الذي نشر مقالةً في «الجمهورية»، عن الأدب اليوناني فوسمه بأنه أدب عفاريت، وهذا إن دل على شيء فإنما هو يدل على جهل أولئك الكاتب، ومنهم صاحبنا الذي لم يتعمق في دراسة الآداب الأجنبية، وما سمع عن اليوناني إلاّ أساطيرها فظن أدبها أدب أساطير، وجنّ وعفاريت[٤]. كما يعرض لنا حال الكاتب الآخر الذي وسم أدبنا العربي القديم بسمة الغرابة والتعقر ظلماً وعدواناً، ولو أنه تعمق في دراسة أدبه لوجد فيه اليسر والسهولة، ولكنه الجهل وعدم التوفر على ما في أدبنا من كنوز. كذلك يأخذ عليه طه حسين ما ذهب إليه من القول إن الأدب الغربي إنما هو أدب استعماري، لا لشيء إلاّ، وكما يقول طه حسين، «لم يستطع أن يفرق بين سياسة بعض الدول المستعمرة وبين الأدب الذي ينشئه أدباء الغرب على اختلاف عصورهم وبيئاتهم، وعلى اختلاف آرائهم في سياسة بلادهم

---

(١) نفسه ص ٨١٩٨

(٢) كلمات ص ٩.

(٣) نفسه ص ٩.

(٤) كلمات ص ١٢.

وفي حرصها على الاستعمار»[1]. أجل إنه الجهل، والكسل، وعدم الثقافة والاطلاع على أدب الغرب. وما أدلّ ذلك الكاتب على جهله حينما ترجم مسرحية شكسبير الرائعة «عطيل» إلى العربية باللهجة العامية، ونشرها في «الجمهورية» مدعياً أن شكسبير كان يكتب تمثيلياته باللغة العامة الإنجليزية. وبالطبع تثور ثائرة طه حسين على هذا الكاتب الجاهل، إذ لو كان يعرف الإنجليزية لما فعل ما فعل، وإنما هو توكأ على ترجمة غيره لهذه المسرحية، فنقلها إلى العامية مدعياً ما ادّعى. وتثور ثائرة طه حسين أيضاً على الجريدة التي نشرت هذه الترجمة وعلى المسؤولين الذين يسمحون بنشر هذا الأدب بحجة حرية النشر[2]. كما يثور الكاتب على رئيس تحرير الجمهورية موسى صبري لأنه انتقد محمد مندور في كتابته النقدية الراقية؛ مدعياً إن مستوى الكلام والنقد فوق مستوى القراء، ناسياً أن دور الصحف يجب أن ينصب على رفع مستوى الثقافة لا الحط منها[3].

ج ـ محدودية الثقافة:

ومن الذين كانوا موضع نقد طه حسين الأدبي ذوو الثقافة الناقصة في الأدب أو اللغة أو العلوم، ممن وقفوا عند حد أدنى من الثقافة أو العلم ولم يتجاوزوه، أو ممن ثقفوا العلوم أو نوعاً من التخصص أو العلم فلم يتجاوزوه إلى غيره. صحيح أن هؤلاء ذوو ثقافة وتخصص، لكنهم قصروا أنفسهم على هذا العلم الذي أتقنوه ولم يتجاوزوه إلى غيره من ألوان المعرفة؛ إنهم، وكما يسميهم طه حسين، المحدودو الثقافة[4].

إنه، أي طه حسين، يميز بين الثقافة والعلم أو التعليم، إذ ليس كل متعلم مثقفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. المثقف، في نظره، هو الذي يتهيأ طبعه وعقله لقبول المعرفة أياً تكن فروعها، ومادتها، تماماً كالطبيب، أو عالم الرياضة، المتخصص في مادته، لكنه يضيف إلى طبه أو رياضته مشاركة في الأدب أو الفن، أو في تذوقهما على الأقل. إن الأديب الذي لا يحسن إلا الأدب، أديب محدود الثقافة، وإن شارك في غير الأدب، هو واسع الثقافة بمقدار حظه من هذه المشاركة[5].

---

(١) نفسه ص ١٣.
(٢) كلمات ص ١٤.
(٣) نفسه ص ١٦.
(٤) كلمات ص ٣٣.
(٥) نفسه ص ٣٥.

ويضرب طه حسين لهؤلاء المثقفين أو المتعلمين ذوي الثقافة الناقصة، يضرب لهم مثلاً كلاً من أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون، في الزمن الغابر، فقد ملأوا الأرض علماً وثقافة، وما زالوا أساتذة الثقافة حتى اليوم، لسبب واضح بسيط، هو أنهم لم يقتصروا على فن معين من الأدب أو العلوم، بل هم ألموا وشاركوا في مختلف أنواع الثقافة والمعرفة الإنسانية(١). ثم إن طه حسين يغمز من قناة أولئك المتعلمين المثقفين غير العاملين بعلومهم وثقافتهم، إذ هم مطالبون بالعمل على مقدار حظهم من العلم، وإلاّ كانوا كالحمار الذي يحمل أسفاراً، وهم مطالبون دوماً بتجديد معرفتهم وتطوير تخصصهم، وتوسيع ثقافتهم، ولو كان يطلق عليهم اسم متخصصين أو متعلمين، فالعالم المتخصص حقاً، وحسب تعبير طه حسين، هو الذي «يتجدد علمه في غير انقطاع، والمثقف الجدير بالثقافة هو الذي تتجدد ثقافته في غير انقطاع. وكلما ازداد تخصص العالم أو اتسعت ثقافته عظمت تبعته أمام بيئته ووطنه، ووجب عليه أن ينفع الناس بكل ما حصل وبكل ما اكتسب»(٢).

إن مسؤولية العالم كبيرة، وأكبر منها مسؤولية المثقف الذي يجهل المعدّ المعدّ له، ويجهل رسالة الثقافة، وهل رسالة الثقافة إلاّ تثقيف الناس، ودعوتهم إلى الخير وهدايتهم إلى الطريق السوي؟ إن الذين يبخلون بعلومهم، ويضنّون بثقافتهم هم أناس أعمتهم الأثرة، وليس ثمة فرق بينهم وبين أولئك الأثرياء الذين يبخلون بالمال الذين يملكون. إن الأثرة من أبشع الصفات في العالم والمثقف، وإن تبعة المثقف لأشد تنوعاً وتعقيداً من تبعة العالم، ذلك أن الأخير إنما يؤدي واجبه ورسالته، إذا أداه وأداها، بصدق وإخلاص. أما المثقف فهو بحاجة إلى شيء آخر، عدا الإخلاص والصدق والأمانة، إنه بحاجة إلى المقدرة على فهم الناس، وفهم الحياة، ومعرفة موضع حاجة الناس إلى الانتفاع بثقافته(٣).

إن أعجز المثقفين، في نظر ناقدنا، هو الذي لا يتعمق هموم الناس، ولا يدرك حاجاتهم، فهو قاصر عن إدراك معنى رسالته، ولهو، وبحسب تعبير ناقدنا «ثرثار إذا تكلم، وأثر إذا سكت»(٤) على أن طه حسين في دعوته هذه، وفي نقده لهؤلاء المثقفين غير العاملين، لا يحملهم المسؤولية اعتباطاً، بل هو يدعو إلى التريث، وعدم التسرّع، وينصح بأن لا نحمل المثقف كل المسؤولية، من قبل أن

---

(١) كلمات ص ٣٥.
(٢) نفسه ص ٣٨.
(٣) كلمات ص ٣٩.
(٤) نفسه ص ٤٠.

تنضج الأفكار، والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وبمعنى آخر، فإن الذين يطلبون إلى المثقف «أن ينشىء ثقافة تلائم الثورة ـ يقصد ثورة يوليو ١٩٥٢ ـ يكلفون المثقف شططاً، لأن الظواهر الثورية نفسها لا تنضج بمجرد ظهورها وإنما هي محتاجة إلى وقت طويل، وتجربة متصلة، فلا يستطيع المثقف أن يتعجل ذلك أو أن يقول فيه قبل إبّانه»[١].

د ـ الترجمة:

ثمة ظاهرة في صفوف أعداء الأدب من المدّعين للمعرفة والعلم، تقول إنا لسنا بحاجة إلى ترجمة كتب الأدب إلى العربية، بل نحن في حاجة إلى ترجمة كتب العلم، انطلاقاً من مفاهيم خاطئة عمادها أن ترجمة الأدب إضاعة للوقت والجهد، وما الخير إلاّ في ترجمة العلم لأن الناس محتاجون إليه أكثر. وكان طه حسين قد شرع في ترجمة آثار شكسبير، فاستهجن ذلك عدد من الكتاب. ومنهم زكي عبد القادر، مدّعين أنا عرفنا ما فيه الكفاية عن شكسبير، وظهر لنا شيء من ملامح عبقريته الأدبية، فلماذا هذا التوفر على آثاره كاملة، ولماذا لا ينصب اهتمام الترجمة على الكتب العلمية دون الأدبية؟ ويردّ طه حسين على هؤلاء بالقول إن القضاء على اللغة العربية وأدبها، أن نقف عند حدود معرفتنا بها فحسب، ودون الاطلاع، بل التعمق في اللغات الأجنبية وآدابها. ذلك أنا إذا أدخلنا إلى لغتنا وأدبنا روائع ما في اللغات والآداب الأجنبية نكون قد أغنينا لغتنا، وخدمنا أدبنا، وكنا أوفياء لأمّتنا، ولتاريخنا، وإلاّ استمر الضعف، وازداد الإهمال، وأصاب لغتنا وأدبنا الجمود[٢]، ويستشهد طه حسين بحال اللغة العربية لما استوعبت في حين من الدهر ما في آداب الأمم من كنوز وروائع، وكيف هضمت هذا كله، ففرضت نفسها على لغات العالم يومئذ، وكانت لغة الأدب، ولغة العلم ولغة التخاطب حتى بين غير العرب.

ويرد طه حسين على مقولة أن الناس بحاجة إلى العالم أكثر من حاجتهم إلى الأدب، فيبين خطأ هذا القول، وخطل مدّعيه، موضحاً أن الناس في حاجة مستمرة إلى المعرفة أياً كانت، علمية، أم فنية، أم أدبية، أم فلسفية. كذلك يوضح لهؤلاء أن ترجمته العلم لا يتوفر عليها إلا العلماء، وتالياً فإن الفائدة ستكون محصورة فيهم ولا تتعداهم إلى الآخرين؛ أما الأدب، فإنه إن ترجم من

---

(١) كلمات ص ٣٩ ـ ٤٠. (٢) كلمات ٧١.

اللغات الأجنبية إلى العربية، فبوسع المثقف وغير المثقف، والعالم غير العالم، أن يفيد منه، ويتأثر به، ولا غنى البتة عن الأدب، لأنه غذاء للفكر والروح فيما تقصر فائدة العلم على العقل وحده، دون الإحساس والشعور والروح[١].

هـ ـ أنصار الجديد:

ويرد طٰه حسين على أنصار الجديد في الشعر، من الذين يزعمون أنهم كانوا سباقين إلى هذا العمل، تأثراً بجديد الأدب والشعر في الغرب، وأنهم هم الذين يمثلون الشعر أصدق تمثيل، مزرين بالقديم الموروث، وبالشعر الموزون .. وبعد أن يعفي نفسه من التعصب لقديم على حساب جديد، أو لجديد على حساب قديم، يرد طه حسين عليهم، فيبين لهم جهلهم بالموروث الشعري، ويفنون شعرنا القديم، لافتاً أنظارهم إلى أن العرب كانوا أسبق الأمم إلى التجديد، وأن الشعر العربي مرّ بمراحل من التطور والنمو والتجديد، في الشكل والمضمون، والصورة، والمعنى واللفظ والأسلوب[٢].

يبين طه حسين لمدعي الحداثة ومحتكريها أن الشعر العربي طرأ عليه التجديد أيام بني أمية إذ خفّت أوزانه العروضية القديمة، فعمد بعض الشعراء إلى الأوزان القصيرة متأثرين بموسيقى الشعوب التي دخلت في الإسلام، كما يبين لهم أن الشعر العربي، في الحقبة نفسها، عرف فنوناً جديدة لم تكن موجودة من قبل في الجاهلية والإسلام، ومن هذا القبيل شعر الغزل الخالص بنوعيه المادي والعذري، وشعر الهجاء الغزلي الذي برع فيه عدد من الشعراء الذين تغزلوا بنساء خصومهم كيداً للخصوم وهجاءً لهم، وتطور شعر الخمرة الذي لم تعرفه العرب من قبل، وظهور الغزل بالغلمان[٣].

ليس هذا فحسب، بل إن الحداثة ظهرت أيضاً في العصر العباسي، إذ انبرى عدد كبير من الشعراء يكثرون من استخدام البديع، ويتفننون في أوجه البيان بشتى صوره، ومن هؤلاء أبو تمام. كذلك في العصور المتأخرة، وقبل شيوع الحداثة في مصر، فإن عدداً من الشعراء المصريين جدّدوا في الشعر، وهذا ما فعله أحمد شوقي، وعزيز أباظه، اللذان أدخلا، ولأول مرة إلى الشعر العربي، ما يعرف بالشعر التمثيلي، ولا يعيبه كونه جاء ملتزماً الوزن والقافية، فالمهم أنه فن شعري جديد[٤].

---

(١) نفسه ص ٧٢.

(٢) كلمات ص ٩٢.

(٣) نفسه ص ٩٢.

(٤) كلمات ص ٩٤.

ومن اللافت للنظر أن النقد الذي يوجهه طٰه حسين لأنصار الحديث أو الجديد، في الأدب أو الشعر، لا يوجهه لهؤلاء كونهم يتذوقون الشعر الجديد، أو يكتبون فيه، لا، فهو أيضاً، أي طٰه حسين قد يتذوق الجديد، وقد يكتب فيه، وذلك لأن القديم لم ينزل من السماء، وليس ثمة مانع من الخروج عليه، أو الانحراف عنه بقليل أو كثير. المسألة، تتمثل بوجوب مراعاة أسس وحقائق وقواعد يجب أن يراعيها هذا المجدد أو ذاك الرافع للواء الحداثة. ليست القضية أن ينشىء المنشىء كلاماً، أي كلام، ثم يزعم أنه شعر حديث.

يجب عليه أن يثبت جدارته وإبداعه في هذا المجال، وذلك لا يكون إلا في القدرة على مخاطبة الإحساس والشعور، وبعث المتعة الفنية، وتحريك خيال القارىء أو السامع، وهزّ عاطفته، بالصورة واللفظة والمعنى والأسلوب .. يجب أن يكون موهوباً قادراً على ملاءمة اللفظ وخلق جوّ من التأثير، عن طريق الإيقاع والانسجام بين التعبير والتفكير والتصوير. ليكن هذا المفتون بالجديد، شاعراً مجدداً، ومبتكراً محدثاً، شريطة أن يحافظ على الجدة ضمن هذه المقاييس. ثم إن هؤلاء المفتونين بالحداثة عليهم أن يدركوا أن ثمة أمماً وشعوباً سبقتهم إلى هذا الجديد فهم يعملون على محاكاته وتقليده، فأين التجديد الذي يتحدثون عنه، وهم في حقيقة الأمر مقلدون؟ إذن، وكما يقول طه حسين، «فلينشىء» هذا الشباب شعراً حراً أو مقيداً، جديداً أو حديثاً، ولكن ليكن هذا الشعر شائقاً رائعاً، ويومئذ لن يروا إلا التشجيع منا والترحيب»[1].

و ـ حب الشهرة الأدبية:

وينتقد طه حسين ظاهرة من ظواهر الأدب، هي تلك التي أخذت تشيع في أوساط أنصاف المثقفين من الأدباء والشعراء الذين يتوفرون على الكتابة الأدبية، نثراً أو شعراً، لا إرضاء لطبع، ولا استجابة لدافع أو إحساس أو شعور، وإنّما من أجل أن تنشر أسماؤهم في الصحف، وأن يثني عليهم النقاد، وإلاّ فإن النقد في أزمة، والأدب في مأزق، تماماً كما كان يفعل الأدباء والشعراء المتكسبون في العصور الأدبية القديمة، مع فارق أن هؤلاء تكسبوا بالأدب طمعاً في المال، وأنصاف المثقفين من الأدباء والشعراء اليوم يتكسبون بأدبهم وشعرهم طمعاً في الشهرة، وحتى يشار إليهم في كل ناد[2].

---

(١) كلمات ص ١٣١. (٢) كلمات ص ١٣٢.

وهب أن النقاد نقدوا شعرهم وأدبهم، لكن أظهروا سيئاتهم، وكشفوا عوراتهم، فإن القيامة تقوم، وإن النقد في أزمة، ثانيةً، وسرعان ما تراهم يردون على النقد، بنقد مثله، وقد أخذتهم العزة بالإثم، مدفوعين بعوامل نفسية لا تخلو من عقدة الشعور بالنقص إزاء نقد النقاد، الذي يجب، في مفهومهم، أن يكون وقفاً على الثناء، والمديح والإطراء، وإلاّ فلا نقد، وغير مسموح للناقد أن يمسّ كبرياءهم ومواهبهم التي عنها يصدرون[١].

وثمة ظاهرة أدبية تسود أوساط بعض المثقفين، ولو كانوا من ذوي الثقافة العالية أحياناً، هي ظاهرة التسرع، أو التعجل الذي يدفع بهم إلى خطأ لم يكن لهم أن يتورطوا فيه، لو أعملوا فكرهم ورأيهم، وتريثوا ما فيه الكفاية من قبل أن يطلقوا أحكاماً في الأدب لا تنطبق على الواقع، ولا تمت إلى الحقيقة بصلة، ومثال ذلك تسرع محمد مندور، في إطلاق الرأي القائل إن القصة لم تبدأ إلا في منتصف القرن التاسع عشر، سمع هذا من أستاذه الفرنسي، ووقف عند رأي أستاذه، ولم يعقب. علماً أن القصص قديم قدم الأدب، فأين ذهب قصص سرفنتس، وأين قصص مدام لافاييت، وديدرو، وڤولتير، وسوساج؟ وغيرهم كثيرون؟[٢].

---

(١) نفسه ص ١٣٣.

(٢) كلمات ص ١٣٤.

(الخاتمة)

في ختام هذا البحث، لا يسعنا إلا التذكير مجدداً بألمعية هذا المفكر العالم والأديب والناقد والمصلح، ولا يسعنا إلا الإشادة بفضله على لغة العرب، وأدب العرب. هذا المتفرّد عن سائر الأدباء برؤيته الحضارية، وأفكاره التقدمية التي دخل بها الأدب من واسع أبوابه فكان فيه أديباً منشئاً خلاّقاً، كتب في المقالة على اختلافها، وفي القصة بأنواعها، وفي أدب السيرة، وأدب الرحلة، والأدب الذاتي، والموضوعي والاجتماعي، فكان أديباً واصفاً مبدعاً، تشهد له كتابته في تاريخ الأدب، شعره ونثره، تعريفاً بأعلامه وفنونه ومدارسه، ونقداً لآثاره ونصوصه، ومواكبة لحركته التطورية، بالدرس والشرح والتعليل . . وما كان في نقده ليقف عند حدود اللغة والأدب، فحسب، بل تعدى ذلك ليكون ناقداً للسياسة والمجتمع والأخلاق والدين. .

إنه باختصار، الشاهد على عصره، وحامل لواء نهضته الأدبية والفكرية، فلا تعجبنّ من بعد، أن يكون طٰه حسين أحد الخمسة العالميين الذين رشحتهم الجمعية العامة للأمم المتحدة ليكونوا جديرين بالجائزة التي تمنحها هذه المؤسسة الدولية، كان ذلك في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، تشرين الأول، صبيحة وفاة هذا الأديب العالمي، من عام ١٩٧٣.

(المصادر والمراجع)

أ ـ لطه حسين:

الأيام: دار المعارف ـ بمصر ١٩٧٤.

بين بين: ط ٨ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨.

حديث الأربعاء: دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٦.

خصام ونقد: ط ٢ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨.

رحلة الربيع والصيف: ط ٧ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨.

شجرة البؤس: دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٢.

الفتنة الكبرى: دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٨.

في الأدب الجاهلي: ط ١٠ ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩.

كلمات: ط ٢ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٧.

مذكرات طه حسين: ط ١ ـ بيروت ١٩٦٧.

المعذبون في الأرض: ط ١١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨.

من بعيد: ط ١ ـ القاهرة ١٩٣٥.

من لغو الصيف: ط ٥ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨.

نقد وإصلاح: ط ٤ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٧.

ب ـ لغيره:

ديوان حافظ إبراهيم: شرح وتحقيق أحمد أمين ـ منشورات دمج ـ بيروت ١٩٦٩.

سقط الزند، لأبي العلاء المعري: دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥.

شرح ديوان المتنبي: تحقيق عبد الوهاب عزام ـ دار الزهراء ـ بيروت.

الشوقيات: تقديم محمد سعيد العريان ـ ط مصر.

طه حسين: أيام ومعارك: لنجاح عمر ـ المكتبة العصرية ـ صيدا وبيروت.

طه حسين وزوال المجتمع التقليدي: لعبد الرزاق شرف ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٧.

«العربي» ـ مجلة ـ: عدد ٢١٨ ـ يناير ١٩٧٧ ـ الكويت.

فهرس المحتويات

اعلام
الفكر
العربي

